على عزت بيجوفيتش

الإسلام
بين الشرق والغرب

ترجمة وإعداد
محمد يوسف عدس
مستشار سابق بهيئة اليونسكو



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام بين الشرق والغرب

كتاب المختار
أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩
ص ب ١٧٠٧ القاهرة - الرمز البريدى ١١٥١١
تليفاكس ٤٩٠٩٥٤١
محمول ٥٨٥٢٧٦٢ / ٠١٠ - ١٥٢٨٢٧٠/٠١٠

مقدمة

كتاب على عزت بيجوفيتش (الإسلام بين الشرق والغرب) صدر فى طبعتين وزع منهما حتى الآن أكثر من تسعة وعشرين ألف نسخة وهو رقم غير معهود فى توزيع الكتب العربية فتوزيع ثلاثة آلاف نسخة من طبعة الكتاب يعتبر نجاحًا ملحوظًا .

عندما ظهر الكتاب لأول مرة سنة ١٩٩٤ — وكان لى شرف ترجمته — أحدث ظهوره وانتشاره هزة إعلامية وثقافية ملحوظة وكان مثار إعجاب ودهشة من الجميع ..انعقدت حوله ندوات فى مصر وفى العالم العربى وحظى بتعليقات الصحفيين والكتاب من كل الأطياف الفكرية على نطاق واسع .. ولعل أهم الندوات التى عُقدت حول الكتاب تلك التى أشرف عليها الدكتور عبد الوهاب المسيرى الذى طالما أوصى بقراءة الكتاب وتدريسه فى برامج الدراسات الفلسفية بالجامعات ..

وفى ديسمبر من نفس السنة حصل مؤلف الكتاب على

جائزة الملك فيصل الدولية وحضر إلى القاهرة بهذه المناسبة وإن كان اهتمامه الأكبر التعريف بطبيعة حرب الإبادة الجماعية التى شنها الصرب على المسلمين فى البوسنة واستنهاض طاقات العرب والمسلمين لمساعدة بلاده فى وقف العدوان الصربى ، وكان هو فى ذلك الوقت رئيس جمهورية البوسنة وقائد نضالها المستميت من أجل البقاء ورد العدوان .

ورغم الانتشار الواسع لهذا الكتاب والاستقبال الرائع الذى استقبله به القراء والنقاد إلا أنه كان هناك شعور بأنه كتاب موجه لصفوة القراء والمثقفين وأنه يصعب تناوله وفهمه من جانب القارئ العادى محدود الثقافة . وقد شعرت كما شعر كثير من الأصدقاء أن هذا الكتاب ينطوى على كنوز فكرية ومعرفية وبه طاقة روحية كامنة وأنه لابد من عمل شيء لتذليل كل صعوبة حتى يتمكن من قراءته بيسر أكبر عدد من الناس ولا يحرمون من فائدته والاستمتاع به .

ومن ثم حثنى الأصدقاء دائمًا على محاولـــة اختـــصار الكتاب وإصدار طبعة ميسرة منه ، ولكنى — على مـــدى عقد كامل من الزمن — أحجمت عن هذه المحاولة خـــشية أن ينال التبسيط والاختصار من قيمة الكتاب الفكرية .

ويبدو أنه قد تجمع لدى الناشر الجرئ صاحب الخـــبرة الواسعة فى مجال النشر — وهو الأستاذ حسين عاشـــور — تجمعت لديه من الأسباب ومن آراء أصحاب الفكر والنظر ما جعله يلمح على ضرورة إنجاز مهمة اختـــصار كتـــاب الإسلام بين الشرق والغرب حتى اقتنعت بوجهـــة نظـــره وبدأت أبحث عن منهج أو مقترب لتحقيق هذه المهمة يزيل ما فى الكتاب من صعوبات فكرية وعقبات فلسفية ويحتفظ فى نفس الوقت بتراثه المعرفى وقيمته الفكرية ولا ينتقص أو ينحرف عن الهدف الذى وضعه المؤلف لهذا الكتاب وهو تقديم الإسلام فى نقائه وسموه فى إطار المقارنة مع الفكـــر الغربى وحضارته المنشقة على نفسها فى صراع عميق بـــين المادية والإلحاد من جانب وبين الدين المجـــرد متمثلًـــا فى الكاثوليكية المتطرفة .

يشتمل الكتاب الأصلى على قسمين رئيسين ، الأول تحت عنوان : (مقدمات – نظرات حول الدين) ، والثانى تحت عنوان : الإسلام وحدة ثنائية القطب .

ولأن القسم الأول يحتوى على حشد هائل من الأفكار العلمية والفلسفية والمصطلحات الخاصة التى تحتاج فى فهمها إلى متخصصين أو مثقفين موسوعيين – اخترت سلسلة من المقتبسات الميسرة تنم بإيحاءاتها الأفكار الواردة بهذا القسم وتقرّب القارئ من أسلوب المؤلف وطريقته فى التحليل والوصول إلى النتائج .

وتجدر الإشارة هنا إلى بعض النقاط الهامة التى أبرزها المؤلف فى هذا القسم وبنى عليها تحليلاته واستنتاجاته فى القسم الثانى :

أولاً : أن الدين كامن فى جذور أشياء كثيرة قد نحسب ألا علاقة لها بالدين كالفن والثورة والمذاهب أو الاتجاهات الفلسفية العبثية والعدمية التى تتسم بالإلحاد ، فإلحاد هؤلاء لا علاقة له بإلحاد الفلاسفة العقلانيين الذين ينكرون

الألوهية إنكارًا يقينيًا جازمًا بينما إلحاد العدميين والعبثيين إلحاد اليائس العاجز الذى كدح فى بحثه عن الله ولكنه لم يهتدى إليه فثار وتمرد وظن أن الحياة عبث خالية من الهدف ومن الألوهية ومن الأمل ذلك لأنه محجوب مقطوع الصلة بالهداية الإلهية وبالوحى الذى يقول :

﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون !؟.﴾

الثانية : أن على عزت بيجوفيتش يستخدم مصطلحات خاصة به لابد من التعرف عليها لنفهم ما يقول بطريقة صحيحة وأهم ما يطالعنا من هذه المصطلحات عبارة (الدين المجرد) ويصف بها الدين عندما يقتصر على الجانب الروحى فى الإنسان وعلى الحياة الآخرة معرضًا عن الاهتمام بالجسد والحياة المادية التى تشكل الجانب الآخر من الإنسان وأبرز مثال عنده على ذلك هو المسيحية الأصلية والكاثوليكية التى تحولت إليها ..أما الإسلام فليس دينًا مجردًا بهذا المعنى الغربى إنما هو (دين وزيادة) ، هو دين ثنائى القطب يضم فى إطار وحدته الروح والجسد معًا ..

حياة الأرض وحياة السماء ..الدين والسياسة والمجتمع فى إطار واحد والعبادة فيه لا تقتصر على التأمل والشعائر التعبدية الكنسية وإنما تشتمل على كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله ابتداء من أصغر شيء (إزالة حصوة من الطريق) إلى الجهاد لدفع الظلم والعدوان وإقرار العدل .

الثالثة : أن عزت بيجوفيتش يميز بين الحضارة والثقافة ، ومصدر التمييز بينهما يرجع إلى نشأة الحياة وتطورها فى مسارين تاريخيين مختلفين ، فهناك تاريخ للدراما الإنسانية التى بدأت فى المرحلة التمهيدية لخلق الإنسان عندما جمع الله ذرية آدم (على هيئة لا نعلمها) وسألهم : ﴿ألست بربكم .. قالوا بلى ..﴾ تطور هذا التاريخ مؤكدًا انتصار حرية الإنسان ومسئوليته فى الأرض .. وينتهى يوم الحساب فى الآخرة ، وينطو هذا المسار على ما يمكن تسميته (الوازع الأخلاقى) للتاريخ وهو جوهر الثقافة ، أما الحضارة فهى تاريخ الأشياء (المادية) وتطورها فى عالم التقدمات العلمية والتكنولوجية .

والمهم – ونحن نقرأ لعلى عزت بيجوفيتش – أن نتنبه إلى أنه يملك مصطلحات جديدة خاصة به ، وقد يستخدم كلمات مألوفة بمفاهيم ومعانى جديدة غير مألوفة أو أكثر تحديدًا وتعيينًا.

ولكى نساعد القارئ على متابعة القراءة بيُسر نود أن نلفت النظر إلى الملاحظات الآتية :

– قد نضيف كلمة فى السياق بين قوسين لمزيد من الإيضاح دون مساس بسياق المعانى والأفكار الأصلية .

– وجود ثلاثة نقاط متجاورة (...) فى السياق تشير إلى كلام محذوف تمشيًا مع هدف الاختصار .

– كل كلام مسبوق بمربع صغير كهذا ■ هو تعليق من جانبنا يقدم لفكرة جديدة أو يربط بين فكرة وأخرى لضرورة اقتضاها الموقف .

وختامًا : فإن هذا الكتيب المختصر من كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) محاولة مخلصة لتقديم فكره وفلسفته فى إطار موجز ميسّر ، لجمهور عريض من محبّى عزت

بيجوفيتش الذين قرأوا له من قبل أو سمعوا عنه خيرًا .

ونسأل الله أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى .

الإسكندرية فى

٦ رمضان ١٤٢٥هـ

١٩ أكتوبر ٢٠٠٤م

محمد يوسف عدس

مستشار سابق بهيئة اليونسكو

عن الإنسان والحياة يقول :

(قضية أصل الإنسان هى حجر الزاوية لكل أفكار العالم، فأى مناقشة تدور حول كيف ينبغى أن يحيا الإنسان، تأخذنا إلى الوراء إلى حيث مسألة (أصل الإنسان) وفى ذلك تناقض الإجابات التى يقدمها كلّ من الدين والعلم كما هو الشأن فى كثير من القضايا) .

(.. يظل السؤال قائمًا : ما هو الإنسان ؟ وهل الإنسان جزء من العالم أو شيء مختلف عنه) .

(إذا صح أننا نرتفع من خلال المعاناة وننحط بالاستغراق فى المتع ، فذلك لأننا نختلف عن الحيوانات ، إن الإنسان ليس مفصلاً على طراز داروين كما أن الكون ليس مفصلاً على طراز نيوتن) .

يشك أليكس كاريل حتى فى قدرة الإنسان على الفهم الكامل للحياة بداخل الخلية فيقول :

(إن الأساليب التى تستخدمها الأعضاء فى بناء نفسها

غريبة على العقل البشرى .. أكوام من المادة تنبثق من خلية واحدة مفردة ، كأن بيتًا بأكمله يُبنى من طوبة ســحرية ، طوبة تقوم تلقائيا بتوليد وحدات أخرى مــن الطــوب .. وتنمو الأعضاء بطريقة تذكرنا بما تفعله الجنيات فى قصص الأطفال . إن عقولنا تتوه تمامًا فى العالم الداخلى للأعضاء).

إن الحياة معجزة أكثر منها ظاهرة .

■ جهل الإنسان وتعصبه :

.. إذا وجدنا فى اكتشاف أثرى حجرين موضوعين فى نظام معين أو قطعًا لغرض ما ، فإننا جميعًا نستنتج بالتأكيد أن هذا من عمل إنسان فى الزمن القديم ، فــإذا وجــدنا بالقرب من الحجر جمجمة بشرية أكثر كمالاً وأكثر تعقيدًا من الحجر بدرجة لا تقارن ، فإن بعضا منا لن يفكر أنها من صنع كائن واع بل ينظرون إلى هذه الجمجمة الكاملــة أو الهيكل الكامل كأنهما قد نشأ بذاتهما أو بالصدفة — هكذا بدون تدخل عقل أو وعى .. أليس فى إنكار الإنســان لله هوى بيّن ؟

إن ضيق أفق الإنسان يتجلى أكثر ما يكون فى اعتقاده

بأنه لا يرى أمامه لغزًا . كأن حكمته هى مجموع علمه وجهله معًا، إنه جهل ولكن الإنسان غير واع به ، حتى أنه يتقبله باعتباره معرفة فى مواجهة أعظم لغز يتصرف بعنجهية وغرور، حتى أنه لا يرى المشكلة . وفى هذا يتجلى الحجم الحقيقى لجهل الإنسان وتعصبه .

من مهام الدين والفن والفلسفة توجيه نظر الإنسان إلى التساؤلات والألغاز والأسرار . وقد يؤدى هذا إلى معرفة ما ، ولكن فى أغلب الأحيان يؤدى إلى وعى بجهلنا ، أو إلى تحويل جهلنا الذى لا نشعر به إلى جهل نعرف أنه جهل، وهذا هو الخط الفاصل بين الجاهل والحكيم ، وأحيانًا يكون كلاهما على معرفة قليلة ببعض المسائل ، إلا أن الجاهل – بعكس الحكيم – يأخذ جهله على أنه معرفة ويتصرف بناء على ذلك .. إنه ببساطة أعمى لا يرى المشكلة وفى حالتنا هو أعمى لا يرى المعجزة .

لهذا الموقف أحيانًا معقبات خطيرة فى الحياة العملية فعند الجهال ثقة عظيمة بالنفس ، بينما يتصرف الحكيم بشك وحذر كما فعل هاملت مما يعطى فريق الجهال ميزة ملحوظة .

وهذا وضع يختلف عن وضع التأمل . فلا حاجة للتأمل إذا كان (كل شيء واضحًا) وهذا هو الموقف العقلى لما يسمونه بالإنسان الجماهيرى أو بتعبير آخر (الفهلوى) .

هذا الصنف من الناس لا يشغل عقله بالأسرار والألغاز .. ولا يشعر بالإعجاب والدهشة عندما يواجه المجهول . فإذا برزت أمامه مشكلة فإنه يصنّفها ويضع لها اسمًا ثم يمضى فى طريق حياته معتقدًا أنه قد حل المشكلة ، ومن هنا جاءت مصطلحات مثل : الغريزة . .(المادة ذات التنظيم الذاتى) ..(شكل معقد) ..أو (مادة شديدة التنظيم) .

(وفى الحقيقة) نحن لا نستطيع تفسير الحياة بالوسائل العلمية فقط لأن الحياة معجزة كما أنها (ظاهرة) .. والإعجاب والدهشة هما من أعظم أشكال فهمنا للحياة .

فى الخلق والإنسان والحرية

قضية الخلق هي فى الحقيقة قضية الحرية الإنسانية ، فإذا قبلنا فكرة أن الإنسان لا حرية له ، وأن جميع أفعاله محدودة سابقًا .. ففى هذه الحالة لا تكون الألوهية ضرورية لتفسير الكون وفهمه ، ولكن إذا سلمنا بحرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله ، فإننا بذلك نعترف بوجود الله إما ضمنًا وإمّـا صراحة ، فالله وحده هو القادر على أن يخلق مخلوقًا حرًا ، فالحرية لا يمكن أن توجد إلا بفعل الخلق.

أى تلاعب بالناس حتى ولو كان فى مصلحتهم هو أمر لا إنسانى ، أن تفكر بالنيابة عنـهم وأن تحـررهم مـن مسئولياتهم والتزاماتهم هو أيـضًا لا إنـسانى ، إن نـسبة الإنسانية إلينا بجعلنا ملتزمين . فعندما وهـب الله الحريـة للإنسان وأنذره بالعقاب الشديد أكد – على أعلى مستوى – قيمة الإنسان كإنسان . فعلينا أن نتبع المثل الأعلى الذى وضعه الله لنا : لندع الإنسان يجاهد بنفسه بـدلاً مـن أن نقوم بعملية نيابة عنه .

بدون الدين وبدون فكرة الجهـاد الروحـى المتـصل

للإنسان كما تقرر فى (الحدث التمهيدى العلوى) لا يوجد إيمان حقيقى بالإنسان باعتباره قيمة عليا . بدون ذلك ينتفى الإيمان بإمكانية إنسانية الإنسان ، أو بأنه موجود على الحقيقة .

إن القول بمذهب إنسانى ملحد ضرب من التناقض ، لأنه إذا انتفى وجود الله انتفى بالتالى وجود الإنسان ، كما أنه ما لم يوجد إنسان فإن الإنسانية التى يزعمونها تصبح عبارة بلا مضمون . إن الذى لا يعترف بخلق الإنسان لا يمكنه أن يفهم المعنى الحقيقى للإنسانية . وحيث أنه افتقد القاعدة الأساسية فإنه سوف يقلص الإنسان إلى مجرد (إنتاج السلع وتوزيعها وفقًا للحاجة) .

(الإنسان نتاج البيئة) هذه المسلّمة الرئيسية فى المذهب المادى تخدم كنقطة انطلاق لجميع النظريات اللا إنسانية التى تتفرع منها : فى القانون وفى علم الاجتماع ، وفى ممارسة التلاعب بالبشر التى بلغت ذروتها فى عهد النازية والستالينية ، وجميع النظريات الأخرى المماثلة فى الإغواء والتى تضع أولوية المجتمع فوق الأفراد ، وتؤكد على التزام الإنسان بخدمة المجتمع.

إلى آخر هذه النظريات — كلها تنتمى إلى هذا المجال . ولا يصح عندنا أن يكون الإنسان خادمًا لأى إنسان ، ولا ينبغى أن يُتخذ وسيلة ، بل يجب أن يوضع كل شـــىء فى خدمة الإنسان ، فالإنسان خادم لله فحسب ، وهذا هـــو المعنى المطلق للإنسانية .

الحضارة فى خلقها الدائم لضرورات جديدة وقـــدرتها على فرض الحاجة على من لا حاجة له تعزز التبادل المادى بين الإنسان وبين الطبيعة وتغرى الإنسان بالحياة البرانيـــة على حساب حياته الجوانية . (إنتج لتربح واربح لتبـــدد) هذه سمة فى جبلّة الحضارة .

أما الثقافة (وفقًا لطبيعتها الدينية) فتميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان أو الحد من درجة إشـــباعها ، وبهـــذه الطريقة توسع فى آفاق الحرية الجوانية للإنسان . وهذا هو المعنى الحقيقى لأنواع كثيرة من النسك وإنكـــار الـــذات

عرفت فى جميع الثقافات ..

فعلى عكس حكمة الإسلام فى (كبح الرغبات) فإن الحضارة — وهى محكومة بمنطق مضاد — عليها أن ترفع شعارًا مضادًا : (أطلق رغبات جديدة) دائمًا وأبدًا .

التعليم وحده لا يرقى بالناس ولا يجعلهم أفضل مما هم عليه أو أكثر حرية أو أكثر إنسانية . العلم يجعل الناس أكثر قدرة .. أكثر كفاءة ، أكثر نفعًا للمجتمع . وقد برهن التاريخ على أن الرجال المتعلمين والشعوب المتعلمة يمكن التلاعب بهم بل يمكن أن يكونوا أيضًا خداما للشر ، ربما أكثر كفاءة من الشعوب المتخلفة .

وتاريخ الإمبريالية سلسلة من القصص الحقيقية لشعوب متحضرة شنت حروبًا ظالمة استئصالية استعبادية ضد شعوب متخلفة أقل تعليمًا كان أكبر ذنبهم أنهم يدافعون عن أنفسهم وحرياتهم . إن المستوى التعليمى المرتفع للغزاة لم يؤثر على الأهداف أو الأساليب ، لقد ساعد فقط على كفاءة الغزاة وفرض الهزيمة على ضحاياهم .

الثقافة الجماهيرية :

.. حل التليفزيون محل الأدب والتفكير ، وبالتالي استطاع أن يقلص النشاط الفكرى ، إنه يقدم حلولاً جاهزة لجميع مشكلات الحياة .

ويمدنا هذا العصر بأمثلة تدلنا على أن وسائل الإعلام الجماهيرية للثقافة عندما تحتكرها الحكومة — تستخدمها وسائل لتضليل الجماهير كأسوأ ما يكون التضليل .. فليس هناك حاجة للقوة الغاشمة لحمل الشعب على عمل شيء ضد إرادته ، حيث يمكن الوصول إلى ذلك اليوم بطريقة مشروعة ، وذاك بشل إرادة الشعب عن طريق تغذيته بحقائق مغلوطة جاهزة ومكررة ، ومنع الناس من التفكير أو الوصول بأنفسهم إلى أحكامهم الخاصة عن الناس أو الأحداث .

لقد أثبت علم النفس الجماهيرى كما أكدت الخبرة أنه من الممكن التأثير على الناس من خلال التكرار الملح لإقناعهم بخرافات لا علاقة لها بالواقع ، وتنظر سيكلوجية وسائل الإعلام الجماهيرية إلى التليفزيون على الأخص

باعتباره وسيلة — ليس لإخضاع الجانب الواعى فى الإنسان فحسب بل الجوانب الغريزية والعاطفية ، بحيث تخلق فيه الشعور بأن الآراء المفروضة عليه هى آراؤه الخاصة .

وترى جميع المجتمعات الشمولية فرصتها فى التليفزيون وتندفع لاستخدامه وهكذا أصبح التليفزيون تهديدًا للحرية الإنسانية ، أكثر خطرًا من البوليس والسجون ومعسكرات الاعتقال السياسى ، وأعتقد أن الأجيال القادمة — ما لم تكن قدرتها على التفكير قد دُمرت تمامًا سوف تُصطدم باستشهاد الجيل الحالى المستهدف بدون عائق لتأثير هذه القوة الضارية التى لا رابط لها ، فإذا كانت الدساتير فى الماضى توضع للحد من سطوة الحكام فإن دستورًا جديدًا سنحتاج إليه لكبح جماح هذا الخطر الجديد الذى يهدد بإقامة عبودية روحية من أسوأ الأنواع .

التقدم ضد الإنسان

فى المؤتمر الدولى السابع لعلماء الجريمة الذى انعقـــد فى بلجراد سبتمبر ١٩٧٣ كان هناك إجماع فى الرأى على أن الوقت الراهن يتميز بالتزايد المذهل للجريمة فى جميع البلاد . ولتفسير هذا الوضع اعترف علماء الجريمة الأمريكيون بأن كوكبنا هذا هو محيط من الجانحين فالناس جميعًا بشكل أو بآخر لديهم نزعة الجنوح وأنه لا يوجد أمامنا مخرج مـــن هذه الكارثة .

الدين والثورة :

كل ثورة حقيقية تتميز بسمات (معينة) تشتمل علـــى الإيمان والشعور المتضخم بالقوة والأهمية والعدوان والرغبة العارمة فى التضحية والموت .. كل هذه المشاعر أبعد مـــا تكون عن المصلحة وأى شخص كان له دور فى ثـــورة أو تابع تطورها عن قرب يستطيع أن يؤكد وجود هذه الملامح

الأخلاقية . إنه يرى الثورة كقصيدة ملحمية وليس فقط مجرد تدمير آلى أو تغيير فى الآلة الحاكمة ... إذا نظرنا إلى الثورة من الداخل – لا باعتبارها عملية ولكن كجزء من الحياة – فستبدو كالدراما التى تؤثر فى الناس تأثير الأديان ، أما إذا نُظر إليها من الخارج ، أى من وجهة النظر السياسية الواقعية ، فيمكن أن تتخذ صفة مختلفة وهدفًا مختلفًا .

والمجتمع الذى تسيطر عليه مشاعر التضامن والتضحية والمصير المشترك يعتبر فى (حالة دينية) ..هذا هومناخ (الحرارة العاطفية العالية) ، الذى يظهر فى حالات الطوارئ (والثورة) ، وفى الاحتفالات الدينية عندما يجمع الناس شعور الأخوة والصداقة . (كذلك) فإن المجتمع العاجز عن التدين هو أيضًا عاجز عن الثورة ، والبلاد التى تمارس الحماس الثورى تمارس نوعًا من المشاعر الدينية الحية ..فمشاعر الأخوة والتضامن والعدالة هى مشاعر دينية فى صميم جوهرها ، وإنما موجهة فى ثورة لتحقيق العدالة على الأرض .

الواجب والمصلحة :

لابد أن يكون وجود عالم آخر ممكنًا فنحن لا نستطيع أن نعتبر الأبطال المأساويين منهزمين بل منتصرين .. ولكن منتصرين أين ؟ فى أى عالم هم منتصرون ؟ أولئك الـــذين فقدوا أمنهم وحريتهم – بل حياتهم – بأى معـــنى هـــم المنتصرون ؟.. من الواضح أنهم ليسوا منتـــصرين فى هـــذا العالم .. إن حياة هؤلاء الأبطال وتضحياتهم بصفة خاصة تغرينا أن نسأل دائمًا السؤال نفسه : هل للوجود الإنسانى معنى آخر . معنى مختلف عن هذا المعنى النسبى المحدود . أم أن هؤلاء الرجال العظام الشجعان مجرد نماذج فاشلة ؟..

إن الأخلاق كظاهرة واقعية فى الحياة الإنسانية لا يمكن تفسيرها تفسيرًا عقليًا ولعل فى هذا الحجة الأولى والعمليـــة للدين . فالسلوك الأخلاقى إما أنه لا معنى له وإما أن لـــه معنى فى وجود الله .

التدريب والتنشئة :

تحدث التنشئة تأثيرًا لطيفًا على نفس الإنسان لا يمكن قياسه، فالتنشئة فاعلية مباشرة تدخل إلى القلب عن طريق الحب والقدوة والتسامح والعقاب ، بقصد إحداث نشاط جوّانى فى نفس الإنسان . أما التدريب باعتباره حيوانيًا فى جوهره فهو نظام من الإجراءات والأعمال تتخذ لفرض سلوك معين على الكائن البشرى ، يزعمون أنه السلوك الصحيح . التنشئة تنتمى إلى الإنسان أما التدريب فإنه مصمم من أجل الحيوانات ، بواسطة التعليم يمكن تشكيل المواطنين أذلين يطيعون القانون ليس بوازع من الاحترام بل بدافع من الخوف أو العادة ، وقد يكون ضميرهم ميتًا ومشاعرهم ذابلة ولكنهم لا يخرقون القانون لمجرد أنهم تدربوا على ذلك . ونرى فى الأدب شخصيات يزعمون أنها لمواطنين طاهرى الذيل وهم فى الحقيقة مفرغون من الأخلاق . وشخصيات لأناس خاطئين هم فى أعماقهم

أخيار ونبلاء . ومن ثم يوجد نوعان من العدالة : عدالة الإنسان والعدالة الإلهية تنظر الأولى إلى الأعمال وتنظر الثانية إلى جوهر الوجود الإنسانى .

المساحة الجوانية للإنسان شاسعة تكاد تكون لا نهائية . فهو قادر على أبشع أنواع الجرائم وعلى أنبل التضحيات . وليست عظمة الإنسان أساسه فى أعماله الخيرة وإنما فى قدرته على الاختيار . وكل من يقلل أو يحدّ من هذه القدرة يحط بقدر الإنسان ، فالخير لا يوجد خارج إرادة الإنسان ولا يمكن فرضه بالقوة ﴿لا إكراه فى الدين﴾ .. والقانون نفسه ينطبق أيضًا على الأخلاق . إن التدريب حتى ولو كان يفرض السلوك الصحيح هو فى أساسه لا أخلاقى ولا إنسانى .

الأخلاق والعقل :

مفهوم الحرية الإنسانية لا ينفصل عن فكرة الأخلاق فبالرغم من تعرض هذه الفكرة لتحورات ، ظلت الحرية هى (الثابت) عند كل تحوّل أو تطور خلال تاريخ علم الأخلاق . فمثل ما للمكان والكم من أهمية فى علم الطبيعة، كانت أهمية الحرية بالنسبة لعلم الأخلاق . يدرك العقل المكان والكم ولكنه لا يفهم الحرية ، وهذا هو الخط الفارق بين العقل والأخلاق .

وظيفة العقل أن تكتشف الطبيعة والآلية ... بمعنى آخر إن العقل يكتشف نفس فى كل شيء ، ولهذا السبب فإن العقل يدور دائمًا فى مكانه . فهو لا يكتشف فى الطبيعة إلا ذاته ..أعنى الآلية .. ومن هنا يأتى التناقض البيّن فى بعض النظريات الأخلاقية التى تنهى جدلها المعقد بنتائج مثل أن الغيرية تساوى الأنانية ، وإنكار الذات يساوى اللذة ، وهذا هو التناقض نفسه الذى جعل فولتير يستخلص رأيه

الغامض الشهير : (تضحية الإنسان بنفسه بـــوازع مـــن مصلحته الذاتية) !..

التحليل المنطقى العقلى للأخلاق يختزلها — ربما لدهشة الملاحظ — إلى طبيعة وأنانية وتضخيم للذات .. يكـــشف العقل فى الطبيعة مبدأ السببية العامـــة الكليـــة القـــدرة ، ويكشف فى الإنسان الطبيعة : الغرائز (القوة ذات السيدين: اللذة والألم) التى تؤكد عبودية الإنسانية وانعدام حريتـــه . إنها آلية التفكير نفسها التى حولت الألوهية إلى (الـــسبب الأول) المحرك الذى (لا يتحرك) ، واختزلـــت الـــروح إلى نفس ، والفن إلى عمل وتكنيك ، إن محاولة إقامة الأخلاق على أساس عقلى لا تستطيع أن تتحرك أبعد مـــا يـــسمى الأخلاق الاجتماعية ، أو قواعد السلوك اللازمة للمحافظة على جماعة معينة ، وهى فى واقع الأمر نوع مـــن النظـــام الاجتماعى .

الأخلاق — بسبب ذلك — لا يمكن القول بأنها نتـــاج العقل. فالعقل يستطيع أن يختبر العلاقات بـــين الأشـــياء

ويحددها ، ولكنه لا يستطيع أن يصدر حكمًا قيميًا عندما تكون القضية قضية استحسان أو استهجان أخلاقى .

... من المستحيل أن تصل إلى تفرقة علمية دقيقة .. بين الجميل والقبيح .. الطبيعة والعقل على السواء لا يمكنهما التمييز بين الصح والخطأ ، بين الخير والشر فهذه الصفات ليست موجودة فى الطبيعة .

فماذا يعنى الإنسان — كشخصية متفردة لا تتكرر — بالنسبة للعلم ؟ لابد أن يكون لعالم شيئًا أكثر من علمه ، أن يكون إنسانًا لكى يفهم هذه الحقيقة .

إننا جميعًا قد يكون لدينا شعور داخلى مؤكد بحريتنا ، فهل نستطيع أن نفسر أو نبرهن بطريقة علمية على هذا الشعور المؤكد ولو كان غامضًا يصعب تحديده . جميعنا يوافق على أنه [ليس] من الصواب معاقبة الشخص الذى تسبب صدفة فى جريمة [قتل] ؟ ومع ذلك فهذا الموقف المنطقى الواضح لا يمكن تبريره علميًا ، فما يقبله القلب لا يستطيع العلم أن يبرهن عليه أو يفسره ، فهل نستنتج القيام

بواجبنا الأخلاقى لأن العقل لا يستطيع أن يبرز أو يساند هذا الصوت الجوانى ؟ إننا لا نفعل هذا ، وإذن فنحن نحتفظ بموقف دون أن نعلم لماذا نحتفظ به رغم أنه ضد عقلنا ، والسبب هو ثقة نابعة من داخلنا بسبب إيماننا .

تمنح البيولوجيا للإنسان التقدم على حساب روحه ونبله الإنسانى .. ويرفض الإنسان التقدم المتاح إذا كان عليه أن يحصل عليه بوسائل تحط من إنسانيته .

هذا النوع من التقدم عند المسيحيين هو المذهب الشيطانى الطبيعى ، وعند الشعراء (ركام من القسوة المبرمجة) .

التقدم العلمى مهما كان واضحًا بارزًا لا يمكنه أن يجعل الأخلاق والدين غير ضروريين ، فالعلم لا يعلم الناس كيف يحيون ولا من شأنه أن يقدم لنا معايير قيمّية ، ذلك لأن القيم التى تسمو بالحياة الحيوانية إلى مستوى الحياة الإنسانية تبقى مجهولة وغير مفهومة بدون الدين ، فالدين مدخل إلى علم آخر متفوق على هذا العالم والأخلاق هى معناه .

الأخلاق والدين :

من الممكن أن نتصور رجل دين لا أخلاق له ، وبالعكس ، فالدين نوع من المعرفة ، والأخلاق هى الحياة التى يحياها الإنسان وفقًا لهذه المعرفة ، وهنا يظهر الاختلاف بين المعرفة والممارسة ، فالدين إجابة على سؤال : كيف تفكر وكيف تؤمن ؟ بينما الأخلاق إجابة على سؤال : كيف تحكم الرغبة وكيف تهدف أو كيف تحيا وكيف تتصرف ؟..

تنطوى إلهامات عالم الغيب على مطلب أن نحيا وفقًا لهذه الرؤية الكونية الواسعة اللانهائية ومع ذلك فهذا المطلب لا يتطابق مع هذه الرؤية . لقد كانت أخلاقيات المسيح السامية نتيجة مباشرة لوعى دينى على الدرجة نفسها من القوة والوضوح . ومع ذلك فإن مفتشى التحقيق الذين قاموا بعمليات الاضطهاد الدينى كانوا أيضًا مخلصين لعقيدتهم الدينية. ونحن إذ نؤكد هذا لا نغفل عما فى هذا

المسلك من تناقض حاد . اقرأ هذه الآية :

﴿الذين آمنوا وعملوا الـصالحات﴾ .. إنهـا تتكـرر بصيغتها أو معناها فى القرآن أكثر من خمسين مرة ، كأنما لتؤكد لنا ضرورة توحيد أمرين اعتاد الناس على الفـصل بينهما . هذه الآية تعبر عن الفرق بين الدين (الإيمان) وبين الأخلاق (عمل الصالحات) كما تأمر فى نفـس الوقـت بضرورة أن يسير الاثنان معًا .

كذلك يكشف القرآن لنا عن علاقة أخرى عكسية بين الأخلاق والدين فيوجه نظرنا إلى أن الممارسة الأخلاقية قد تكون حافزًا قويًا على التدين ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فمعنى الآية هنا لا يقول : (آمن لتصبح خيرًا) وإنما يقول : (إفعل الخير تصبح مؤمنًا) وفى هذه النقطـة نـرى إجابة على سؤال كيف يمكن للإنسان أن يقوّى إيمانه ؟.. والإجابة هى : (إفعل الخير تجد الله أمامك) .

الأخلاق والمصلحة المشتركة :

يقول أصحاب نظرية المصلحة : يحب الإنسان مشاعر وانطباعات معينة والأشياء التي تسببها ، ويكره مشاعر وانطباعات أخرى وكل ما يسببها ، وبما أن الإنسان يعيش في مجتمع فهو محاط بكائنات تشبهه وهي حسّاسة مثله . جميع هذه الكائنات تبحث عن اللغة وجميعها يخشى الألم وقد اصطلحوا على ما يسبب لهم اللذة (خيرًا) وكل ما يسبب لهم الألم (شرًا) ..ويطلقون على كل ما فيه نفع لهم (فضيلة) وعلى كل ما فيه ضرر لهم (رذيلة) . ويذهب هو لباخ (ديترش فون) إلى أن الضمير هو الوعي بالتأثير المحتمل لسلوكنا على الناس الذين يحيطون بنا وعلينا أيضًا : والندم إنما هو الخوف الذى نستشعره لمجرد التفكير بأن سلوكنا قد يجعل الناس يكرهوننا أو يغضبون منا) .

هذه النظرة تجعل من الأخلاق مجرد أنانية مهذبة .. مصلحة فرد مفهومة ومقدّرة ، إنما يتدخل العقل ليحول

هذه الرغبة فى اللذة إلى مطلب أخلاقى ، ويفسح الذكاء والذاكرة والرؤية أمام الإنسان ليرى الماضى والمستقبل بالإضافة إلى الحاضر .. وهكذا ، لا يحفز سلوك الإنسان فقط مصلحته الآنيّة وإنما النهاية السعيدة فى طيتها ، وفى ضوء هذه الحسبة يحول الإنسان مشاعر الألم واللذة — وهى حقائق بيولوجيا حيوانية داروينية — إلى مفهومى الخير والشر فالخير والشر ليسا سوى اللذة والألم تضاعفا بالفطنة والتفكير والحساب وهكذا تنحصر أخلاقيات المنفعة فى حدود الطبيعة وينحسر بعدها عند أسوار هذا العالم الدنيوى .

الأخلاق ليست مربحة بالمعنى العام لهذه الكلمة فهل نستطيع مثلاً أن نقول أن الشعار السائد (النساء والأطفال أولاً) مفيد من الناحية الاجتماعية ؟.. هل من المفيد أن تكون عادلاً أو أن تقول الصدق ؟..

إننا نستطيع أن نتصور مواقف عديدة يكون الظلم فيها والكذب هما المفيدان وبالمثل فإن التسامح الدينى والسياسى

والعرقى والوطنى ليس مفيدًا بالمعنى المعتاد للكلمة . أما أن تدمر الخصوم فهذا أكثر فائدة من وجهة نظر العقلانية البحتة . ولكن التسامح إذا توافر – فإن ممارسته لا تكون من قبيل المصلحة ، وإنما يكون التسامح بحافز من مبدأ أو باعث إنسانى.

إن حماية العجزة والمقعدين أو العناية بالمعوقين والمرضى الذين لا أمل فى شفائهم ، كل ذلك ليس من قبيل السعى وراء الفائدة . فالأخلاق لا يمكن أن تخضع لمعايير المنفعة . نعم ..قد يكون السلوك الأخلاقى أحيانًا مفيدًا ، ولكن ليس معنى هذا أن شيئًا قد أصبح أخلاقيًا لأنه أثبت فائدته فى فترة ما من فترات الخبرة الإنسانية .

على العكس فهذه الخبرة نادرة الحدوث .

إن الاعتقاد المتفائل بوجود اتساق بين المنفعة من ناحية وبين الصدق والأمانة من ناحية أخرى أثبت أنه اعتقاد ساذج بل وضارّ فله أثر مدمر على نفوس الناس لأنهم يشاهدون عكس ذلك على الدوام .

ولكن الإنسان المستقيم بحق هو الإنسان الذى يقـــدم على التضحية وإذا واجه الإغراء ثبـــت علـــى إخلاصـــه للمبادئ لا لمصلحته . ولو كانت الفضيلة مربحـــة حقًـــا لتسارع إلى اقتحامها الانتهازيون ليكونوا نماذج للفضيلة .

يمكن إقامة أخلاقيات المنفعة على أساس من العقل ولو على المستوى النظرى ولكن من المستحيل أن نقيم علـــى العقل وفى غيبة الألوهية أخلاقيـــات غيريـــة لا أنانيـــة أو أخلاقيات تقوم على التضحية كمـــا ينبغـــى أن تكـــون الأخلاق .

السلوك باسم الأنانية شيء والسلوك باســـم الواجـــب شيء آخر ، الأول يستند إلى المصلحة والحاجـــة والنظـــام والعقل أما الثانى فهو ممكن فقط باسم الله . ص ٢٠٥

السلوك الجمعى قائم على التنظيم وقد يكون إجراميًا .. والمصلحة المشتركة لا يمكن أن تكون مصلحة جميع البشر ، إنها دائمًا مصلحة مجموعة محددة مغلقة قد تكون مجموعـــة سياسية أو وطنية أو طبقة ..

المصلحة المشتركة لمجموعة من الناس أو الوطن ما قـــد تستدعى استقلال أو استعباد بل حتى إبادة أعضاء مجموعة أخرى من البشر أو شعب آخر . والتاريخ الحديث للأمـــم – وعلى الأخص تاريخ الامبريالية الاستعمارية – حافـــل بالأمثلة على أن ما يطلق عليه المصلحة المشتركة يمكـــن أن يأخذ شكلًا إجراميًا صريحًا .

* أطلق على الأخلاق النفعية فى الكتابات الإنجليزيـــة (أخلاق النتائج) ، بمعنى أن الشيء يكـــون أخلاقيًـــا أو لا أخلاقى تبعًا لما يترتب عليه من نتائج حـــسنة أو ســـيئة ، ولكن كما رأينا من قبل الأخلاق الأصيلة لا تعبأ بالنتـــائج على الإطلاق إلى حد إنكار الأفعال باعتبار أنها هى التعبير الخارجى للسلوك الإنسانى ، فالأخلاق الأصـــيلة ينـــصب اهتمامها فحسب على النية أن تريد وأن تفعل – ذلك أمر إنسانى فبالإرادة والعمل ينتهى مجال الأخلاق ، أما النتائج والمعقبات فإنها أمور بيد الله (سبحانه وتعالى) .

الأخلاق بدون إله :

تقدم لنا الخبرة العملية فى عالم الأخلاق كثيرًا من الأمثلة على أخلاقية أناس لا يكترثون بتعاليم الدين أو لا يؤمنون بالله وليس فى الأمر ثبات دائم ، بل يوجد انفصام بين العقيدة الإسمية المعلنة وبين سلوك صاحبها . فهناك أناس متمسكون بالدين تمسكًا شديدًا بل قد يكونون من العاملين فى الدعوة الدينية ، ومع ذلك لا تجد سلوكهم يختلف فى شيء عن سلوك الماديين العتاة ، والعكس أيضًا صحيح : فهناك أناس كثيرون منسوبون إلى التفكير المادى ومع ذلك يتمتعون بإخلاص شديد ومستعدون للمعاناة بل للنضال من أجل الآخرين ، من هذا التشوّش وعدم الثبات تنشأ الكوميديا فتحير عقول المفكرين الجادين ، حتى أكثرهم استنارة .

ليست هناك إذن علاقة تلقائية بين عقيدتنا وسلوكنا ، فسلوكنا ليس بالضرورة من اختيارنا الواعى ولا هو قاصر

عليه .. إنه على الأرجح نتيجة التنشئة والمواقف التى تشكلت فى مرحلة الطفولة، أكثر من نتيجة للمعتقدات الفلسفية والسياسية الواعية التى تأتى فى مرحلة متأخرة من مراحل الحياة . فإذا تعلم شخص ما أن يحترم كبار السن وأن يحافظ على كلمته ، وأن يحكم على الناس بصفاتهم وأن يحب الآخرين ويساعدهم ، وأن يقول الصدق ، وأن يكره النفاق وأن يكون إنسانًا بسيطًا أبيًا ، إذا نشأ على كل هذه الأخلاق الحميدة فستكون هى صفاته الشخصية ، بصرف النظر عن أفكاره السياسية الأخيرة أو فلسفته الإسمية التى يعتنقها .

هذه الأخلاقيات — إذا نظرنا إليها نظرة تحليلية — مدينة الدين ومنقولة منه .. فقد نقل التعليم نظرات وفضائل دينية أصيلة معينة فى ما يتصل بالعلاقة بين الإنسان والإنسان ، ولكنه لم ينقل معها الدين الذى هو مصدر هذه الأخلاقيات.

فى هذه الحالة توجد خطوة واحدة بين التخلى عن هذا

الدين وبين التخلى عن أخلاقياته . بعض الناس لا يقدمون على هذه الخطوة ، ومن ثم يظلون (منقسمين) بيت دين لا يتبعونه وأخلاقيات هذا الدين التى يستمرون فى اتباعها ، برغم أنهم لا يؤمنون بالأساس الذى أقيمت عليه هذه الأخلاق . هذا الموقف يمنح الفرصة لبروز ظاهرتين تعقدان البحث : الملحدون الأخلاقيون والمؤمنون الذين لا أخلاق لهم .

■ ينتهى عزت بيجوفيتش من تحليلاته للأوضاع الأخلاقية إلى نتيجتين هامتين : النتيجة الأولى هي أن الأخلاق من حيث هى مبدأ لا توجد بلا دين ، بينما الأخلاق العملية يمكن أن توجد فى غياب الدين ، فهى توجد – حسب تعبيره – (بحكم القصور الذاتى)، ومن ثم فإن أبرز خصائصها أنها واهنة بالغة الوهن، والسبب عنده أنها قد انفصلت عن المصدر الذى منحها قوتها المبدئية، ألا وهو الدين .. أما النتيجة الثانية فهى أنه لا يمكن بناء نظام أخلاقى على الإلحاد والمثال على ذلك ما حدث فى النظام

الماركسى بالاتحاد السوفييتى ، فلكى يؤسس الماركسيون مجتمعًا ويحافظوا على وجوده واستمراره كان عليهم أن يطلبوا من الناس مثالية وتضحية أكثر مما طلب أى نبىّ من أتباعه باسم الدين .

وفى هذا يقول عزت بيجوفيتش : (إن الإلحاد إذا وُضع موضع الممارسة ثم حاول بناء مجتمع فإنه يضطر اضطرارًا إلى أن يستمد بضاعته من الأشكال القائمة للأخلاق الاجتماعية ولكنه لا يملك الوسيلة لحماية المبدأ الأخلاقى أمام هجوم دعاة المنفعة أو الأنانية أو اللا أخلاقية من أى نوع ، فالإلحاد عاجز ومنطقه أشلّ .. لماذا ؟ لأنه فقط لا يستطيع أن يجيب عن سؤال بسيط إذا كنت سأحيا اليوم فقط وسأموت غدًا ..وأتلاشى فى التراب إلى الأبد ، بلا قيامة ولا حساب ولا آخره ، فلم لا أعيش اليوم بدون قيود أو التزامات ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ؟..

إنما تبقى المعايير الأخلاقية الموروثة فحسب فى وعى الناس ، وتحافظ عليها الدولة بدافع الضرورة المحضة ، وفى كلتا الحالتين فإن هذا النظام الأخلاقى الموروث مناقض للأيديولوجية الرسمية ولا يوجد له مكان فيها .

الثقافة والتاريخ

الإنسانية الأولى :

يعتقد الماديون أن التاريخ يسير فى خط مستقيم وأن تطوّر العالم قد بدأ من الصفر ، فالتاريخ يلتزم بحركة متصلة إلى الإمام . ولكن التاريخ عند الماديين هو التطور المادى للحياة البشرية ، فهم معنيون بتاريخ الأشياء أو بتاريخ المجتمع لا بتاريخ الإنسان نفسه ، أما تاريخ الثقافة فلم يبدأ من الصفر ولا يسير فى خط صاعد مستقيم ، فعندما تحرر المجتمع الإنسانى لأول مرة من الطبيعة لم يكن يتميز عن أى قطيع من الحيوانات التى كانت حوله ، ولكنه فى اللحظة نفسها اكتشف سمات إنسانية خاصة به ، وقيمًا أخلاقية معينة يحتار معها العقلُ . لقد دخل الإنسان التاريخ برأس مال أخلاقى مبدئى هائل ، لم يرثه من آبائه المزعومين (الحيوانات) ، وقد عجز العلم عن تفسير هذه الظاهرة ، وكان رفض العلم للافتراض الدينى هو الذى أعاقه عن فهم هذه الظاهرة .

كانت الأفكار الاجتماعية عند الأديب الروسى تولستوى متأثرة بأوضاع لمسها فى حياة الفلاحين الروس البسطاء الذين لم تفسدهم الدنيا بعد ، فهنا وفى كل مكان تسير القيم الخلقية والإنسانية جنبًا إلى جنب مع المستويات البسيطة من التطور المادى والاجتماعى .

فى كتاب التاريخ العام لأفريقيا (الذى نشرته منظمة اليونسكو) نأتى على حقائق مثيرة عن ثقافة الشعوب البدائية ، فمن المعروف مثلاً أنه فى الدول الأفريقية كان جميع الأجانب سواء كانوا بيضًا أو ملونين يتمتعون بكرم الضيافة وبنفس حقوق المواطنين المحليين ، فى حين كان الأجنبى فى روما القديمة أو فى بلاد الإغريق يتحول إلى رقيق عندهم . ولعل هذه الحقائق وأمثالها هى التى جعلت عالمًا ألمانيًا خبيرًا فى الدراسات الإفريقية هو (ليو فرونبيوس) يقول : (إن الأفارقة متحضرون حتى النخاع وأن فكرة أنهم برابرة متوحشون ليست سوى خيال أوربى) .

أين التحضر وأين البربرية ؟..

يرى عزت بيجوفيتش فى تاريخ القارة الأمريكية وحده أبلغ دليل على سقوط مزاعم الأوربيين فى التحضر والبربرية حيث يقول : ألم يكن الأسبان الغزاة المتحضرون هم الذين دمروا — بأحط الوسائل — التى لم يشهدها التاريخ من قبل — الثقافة المایاوية والأزتية ودمروا الشعوب نفسها التى كانت تعيش فى هذه المناطق ؟ أليس المستوطنون البيض (هل نقول من البلاد المتحضّرة ؟ !) هم الذين دمروا — بطرق منظمة — القبائل الهندية (الهنود الحمر) من السكان المحليين والعشائر التى كتب عنها (مورجان) (بإعجاب شديد) واستخدموا فى ذلك أساليب (بشعة) لم يسبقهم إليها أحد فى التاريخ الحديث ؟..

الأمريكيون المتحضرون :

كانت الحكومة الأمريكية حتى منتصف القرن التاسع عشر – تدفع مبلغًا من المال لمن يأتى (للسلطات) بفروة رأس أحد الهنود الحمر ، واستمرت تجارة الرقيق الأسود طوال ثلاثة قرون عبر الأطلنطى جنبًا إلى جنب مع نمو الحضارة الأوربية الأمريكية ، كجزء لا يتجزأ من هذه الحضارة ، ولم تتوقف هذه التجارة الشائنة حتى سنة ١٨٦٥ . وقدّر عدد الذين وقعوا فى الأسر فريسة الصيد البشرى (بالمعنى الحرفى لهذه العبارة) خلال هذه الفترة بين ١٣ إلى ١٥ مليون إنسان حر ، علمًا بأن العدد الحقيقى لم يعرف أبدًا ، وهنا – مرة أخرى – كانت الأعمال الوحشية موجهة من مجتمع متحضر ضد أحرار مسالمين من الشعوب البدائية (التى توصف بالبربرية) .

فإذا تأملنا الإمبريالية الحديثة ، بمعنى المواجهة بين الحضارة الأوربية وبين ما يسمى بالشعوب المتخلفة غير

المتحضرة أو الأقل حضارة ، نجد أن هذه الإمبريالية تفصح عن نفسها فى كل مكــان بعنفهــا وخــداعها ونفاقهــا واستعبادها ، كما تبدو فى تدمير جميع القيم المادية والثقافية والأخلاقية للشعوب البدائية الضعيفة .

ما أشبه اليوم بالبارحة : وهل نــرى مــن الإمبرياليــة الأمريكية الصهيونية باسم التحضر والديمقراطية سوى هذا الوجه القبيح !

يميز عزت بيجوفيتش بين الحضارة والثقافة ويمنح هــذه النقطة حيزًا بارزًا من كتابه ونجد له فى ذلــك تحلــيلات عميقة فى أكثر من موضع ، حيث يربطها بالنــشأة الأولى للإنسان ، وبالأخلاق وينتهى إلى تساؤلات جوهرية عــن مصدر الشر فى الإنسان .

الأخلاق والتاريخ :

موضوع الثقافة موضوع ثابت هو لماذا نحيا ؟ أما الحضارة فهى تقدم متصل يتعلق بسؤال آخر هو : كيف نحيا ؟ فالأول سؤال عن معنى الحياة والثانى سؤال عن كيفية هذه الحياة . ويمكن تمثيل الحضارة بخط صاعد على الدوام يبدأ من اكتشاف النار مارًا بالطواحين المائية ثم اكتشاف الحديد والكتابة والآلة حتى الطاقة الذرية ورحلات الفضاء . أما الثقافة فهى بحث دائب يعود إلى الوراء ثم يبدأ من جديد ، ذلك لأن الإنسان باعتباره موضوع الثقافة بأخطائه النمطية وفضائله وشكوكه وخطاياه وكل ما يشكل وجوده الجْوانىّ ، يبرهن على أولويته الفائقة ونستطيع أن نقول أيضًا — إلى حد كبير — عدم قابليته للتغيير .

فجميع المعضلات والمشاكل المعروفة اليوم فى الأخلاق كانت معروفة منذ أكثر من ألفى سنة مضت ، فجميع معلمى البشرية من أنبياء وغير أنبياء عبر أحقاب من الزمن

تمتد من القرن السادس قبل الميلاد حتى العصر الحالى ، جميعهم علّموا البشرية نفس الأخلاق . فالحقائق الأخلاقية حقائق ثابتة وهى بذلك تتميز عن القواعد والنظم الاجتماعية وأساليب الإنتاج والسبب فى هذا التميز يرجع إلى أن لغز الإنسانية قد بدأ فى لحظة الخلق الإلهى أو فى هذه (المقدمة السماوية) (التى جمع الله فيها ذرية آدم عليه السلام على هيئة لا نعلمها وقال لهم : ألست بربكم ؟

قالوا : بلى ...) هذا الفعل الإلهى الذى سبق تاريخ الإنسانية كله ليس فى مقدور العقل أو العلم أو الخبرة وحدها أن يساعدنا فى الاقتراب أو الفهم لهذا اللغز العظيم.

والوصايا الأخلاقية الجوهرية لا تتأثر بالزمان والمكان ولا بالظروف الاجتماعية .. فعلى عكس ما نراه فى النظم الاجتماعية والسياسية من اختلافات كبرى فى درجة تطورها حتى فى رموزها الدينية وعقائدها نجد تماثلًا عجيبًا فى المبادئ الأخلاقية فى أنحاء العالم .

إن الاختلافات فى فهم الخير والشر ، المسموح والممنوع تصادفنا فقط فى المسائل الأقل أهمية ، وما يقدم إلينا عـادة من أمثلة عن استناد الأخلاق إلى ظروف تاريخية وغيرها لا تتصل على الإطلاق بالمبادئ الأساسية فى الأخلاق وإنما فقط بما يتعلق بالأخلاقيات والسلوكيات الرسمية ، أما فى أهم المسائل فتستطيع أن تجد توافقًا مؤكدًا بل تطابقًا .

الدراما والطوبيا

■ تحت عنوان الدراما والطوبيا يناقش عزت بيجوفيتش قضية الخير والشر فيتساءل : هل يأتى الشر من الداخل ..من الأعماق المظلمة فى النفس الإنسانية ؟ أم أنه يأتى من الخارج ..أى من الظروف الموضوعية للحياة الإنسانية ؟ ، وإجابة على هذا التساؤل يقول : أمام هذه القضية ينقسم الناس إلى طائفتين كبيرتين : المؤمنون والماديون ، يعتقد المؤمنون أن نوازع الخير والشر كلاهما مركوزة فى الإنسان ومن ثم فإنهم ينكرون توجيه اللوم والقسوة إلى الخارج لأن هذا يكون قتالاً مع شر خيالى لا وجود له ، إنما ينبغى توجيه اللوم إلى أنفسنا على هيئة ندم وتقشف .

ويرى عزت بيجوفيتش أن التأكيد على فكرة أن للشر وجودًا خارجيًا وأن الإنسان يكون شريرًا فقط لأن الظروف المحيطة به ظروف سيئة ، هذا التأكيد على أن

الإنسان نتاج ظروفه الخارجية يعتبر من وجهة نظر الـــدين أكثر الأفكار إلحادًا ولا إنسانية ، ذلك لأنها تختزل الإنسان إلى مجرد شيء — إلى خادم تعيس لقوى آلية عميــاء بــلا اختيار ولا إرادة .

ويقول : (الشر بداخل الإنسان) و (الـــشر فى البيئـــة الاجتماعية) عبارتان بينهما أقصى التعارض ، وهما يتوازيان مع ظاهرتين أخريين بينهما تعارض بل صدام ألا وهمـــا : الدراما والطوبيا .

والطوبيا هى (المدينة الفاضلة) أو (الجمهورية المثاليـــة) التى تخيلها بعض الفلاسفة مثل أفلاطون وتوماس مـــور ، وهى مجتمع خيالى مصنوع لم ينشأ طبيعيًا أو تلقائيًا وإنمـــا مخطط ومبرمج من ألفه إلى يائه ، ابتداء من اختيار أفـــراده من نوعيات وأعمار معينة ، وخضوع هؤلاء الأفراد لقواعد صارمة تتناول علاقاته الأسرية والاجتماعية كما تتنـــاول نوع الطعام وأساليب العمل والراحة ..وتبيّن كيف يستبعد الفرد من المجتمع بالقتل إذا مرض أو أنجب مريضًا .

هذه الطوبيا الكاملة آلية لا إنسانية فيها ، فإذا كانت الحرية هى جوهر الدراما الإنسانية فإن النظام والتماثل هما العنصران الأساسيان فى الطوبيا .

تتعامل الدراما مع الإنسان ، أما الطوبيا فتتعامل مع العالم .. فى الطوبيا يضمحل عالم الإنسان الجوّانى الهائل ليتحول إلى نقطة هامشية زائفة ، فالافتراض المسبّق فى الطوبيا هو أن الناس ليس لهم نفوس ومن ثم لا توجد مشكلات إنسانية أو أخلاقية فى الطوبيا ..الناس هنا لا يحيون وإنما يعملون فى وظائف ..إنهم لا يحيون لأنهم محرومون من الحرية – والمواطن هنا ليس له شخصية بل له وظيفة فى عملية الإنتاج ..إنتاج نسخة من نفسه عن طريق التوالد ، والخير والشر كلمتان لا معنى لهما عنده .. وهكذا كانت المجتمعات الشيوعية القائمة على طوبيا الاشتراكية العلمية لا تعنى بالمشكلات الأخلاقية ، فالطوبيا أبعد ما تكون عن معايير الخير والشر فكل شيء فيها مخطط .

الدراما من حيث جوهرها وتاريخها فهى نتاج الدين ،

أما الطوبيا فهى نوع من العلم ، وفى هذا يرى (ألـــدوس هكسلى) أن إنسان المستقبل سيكون إنسانًا صناعيًا ناتجًــا عن التكنولوجيا التى صنعها بنفسه ..بواسطة التقدمات التى تحققت فى علم الجينات ، سوف يتم إنتاج الجنين البشرى فى معامل كبيرة وفقًا لنماذج تحدد تصميه مسبقًا ، وسيساعد العلم فى خلق كائنات بشرية كاملة التماثـــل أى نـــسخ مكررة من كائنات لن تكون لهـــا شخـــصيات مـــستقلة متميزة، ولكنها تتمتع بدلاً من ذلك بأفضل الخصائص .

ساكن الطوبيا ليس إنسانًا بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمـــة بل حيوان اجتماعى أو حيوان ذو عقل . يكون الإنـــسان أخلاقيًا أو لا أخلاقى أما عضو المجتمع الطوباوى فلا يتميز إلا بوظيفته فحسب .

فى الطوبيا أحداث خارجية تتلخص فى قضية (الإنتـــاج والاستهلاك والتوزيع) ، والطوبيا عقيدة الملحد وليـــست عقيدة المؤمن ، فإذا كان الإنسان فردًا (شخصية) ولـــيس حيوانًا فإن هذه العقيدة مجرد وهم ، ولقد أصبح المجتمـــع

المثالى (الطوبيا) مستحيلًا منذ لحظة الخلق لحظة ألسنة الإنسان ، فمنذ تلك اللحظة بدأ الإنسان يواجه صراعًا أبديًا يعصف به القلق والإحباط ، إنها الدراما الإنسانية الخالدة :

﴿وقلنا إهبطوا بعضكم لبعض عدو ...﴾

حقيقة الخلق وإرادة الله فى وجود الإنسان جعلا هذه الآلية الطوباوية وهمًا مستحيلاً ، ومن هنا جاء تعصب الطوبيات جميعًا ضد الدين وإنكارها للألوهية .

وهكذا : بينما أعلن أنبياء الطوبيا أن المجتمع ومصالحه هى القيمة الأسمى ، فقد أراد الله أن يكون الإنسان هو صاحب هذه القيمة ..لقد وهب الله الحرية للإنسان لكى يجعل من هذا العالم فتنة له واختبارًا ، ولكى يؤكد أن الإنسان وروح الإنسان هى القيمة الأعلى ..

فإذا آمنت بروح الإنسان فإن هذا يعنى عمليًا أن تكون واعيًا بمحيط هائل صعب العبور ، هادر بالعصيان والخوف والشك والتمرد . وإذا عرفت بأن أخص خصائص الإنسان

فرديته التى لا شفاء له منها ، تبين لـــك اســتحالة قولبــة الإنسان أو تدجينه ، إنه ما أن يحصل على حيـــاة الرخـــاء والدعة حتى ينبذها بازدراء ، ويهب باحثًا عـــن حريتـــه وحقوقه الإنسانية .. (إن الإنسان حيوان يرفض أن يكون حيوانًا) .

الطوبيا والأسرة :

الأسرة ليست هى الخلية الأساسية للمجتمع كما تعلن بعض الدساتير القديمة ، [على الأقل يجب أن نأخذ هـــذه المقولة بشيء من الحذر] فالأسرة والمجتمع متنافران ذلـــك لأن المبدأ الرابط فى الأسرة هو الحب والعاطفة وفى المجتمع هو المصلحة أو العقل أو كلاهما معًا ، وكل درجة تطـــور فى المجتمع يقابلها حيف بالأسرة بنفس الدرجة فإذا تم تطبيق المبدأ الاجتماعى بكل نتائجه — أى وصل إلى وضع الطوبيا — تلاشت الأسرة ، فالأسرة باعتبارها حاضنة العلاقـــات

الرومانسية والشخصية الحميمة فى تعارض مع جميع مبادئ الطوبيا .. تضيق دائرة الأسرة حتى أصبح الاجتماع فى علاقة زواجية مستحيلاً من الناحية العملية وفى النهاية لا يبقى سوى الفرد وحده مع علاقة سائبة بالجنس الآخر .. بهذا الانحلال يتوقف الزواج ..

فى هذا المناخ يصبح حمل الأطفال متحررًا من أى عاطفة لأنه مجرد وظيفة أو شكل من اشكال الإنتاج ..

فى مجتمعات الطوبيا تتحول جميع أساسيات الوجود الإنسانى من اجتماعية ومادية ومعنوية من الأسرة إلى المجتمع .. تقول داعية تحرير المرأة الفرنسية (سيمون دى بوافوار : ستظل المرأة مستعبدة حتى يتم القضاء على خرافة الأسرة وخرافة الأمومة والغريزة الأبوية) ولا تقضى الحضارة الغربية على الأسرة فقط من الناحية النظرية ، وإنما تفعل ذلك فى الواقع أيضًا . فقد كان الرجل أول من هجر الأسرة ثم تبعته المرأة وأخيرًا الأطفال . ونستطيع أن نتتبع القضاء على الأسرة فى كثير من الجوانب :

فعدد حالات الزواج فى تقهقر مستمر مع تزايد فى نسبة حالات الطلاق ، وتزايد فى عدد النساء العاملات وزيـــادة مطردة فى عدد المواليد غير الشرعيين ، وزيادة مستمرة فى عدد الأسر التى تقوم على أحد الوالدين فقط هـــى الأم .. إلخ .

وفى استبيانات فرنسية مع طالبات المـــدرس أصـــبحت الرغبة فى الزواج ترد فى آخر القائمة ، بينما تحتل الرغبة فى الاستقلال والحياة السائبة المركز الأول .

ونشر معهد استكهولم للبحوث الاجتماعية نتائج مسح أجراه سنة ١٩٧٢ نعرف منه أن النساء اللائى يـــذهبن إلى دور الدعارة فى أكثر الحالات نساء ميسورات الحال ، وإنما أصبحن مدمنات للدعارة فقط لأنهـــن يـــستعذبن هـــذا الأسلوب من أساليب الحياة السائبة .

والنتيجة انتشار للطلاق وانفصام عرى الأسر وهروب الأطفال من البيوت .. وفى هذه الأوضاع المترديـــة يجـــد المسنون أنفسهم فى أسوأ حال .. فهذه الحضارة العقلانيـــة

تفصّل العالم على مقاس الشباب وأهـــوائهم ومـــزاجهم .
غابت الأم من البيت وتخلت عن واجبها التربوى فهى تلد فقط ، أما التربية فتتولاها الحضانة التى لا تربى إنسانًا بـــل تنشئ عضوًا فى مجتمع .. تصمم مواطنًا يسكن الطوبيـــا . فبدلاً من التربية والتنشئة الإنسانية نواجه عملية تكنولوجية كأننا بإزاء إنتاج دواجن .

وترتفع على رأس هذه المجتمعات العبـــارة الماركـــسية الشهيرة كما وردت فى كتاب (رأس المال) : إن الأطفـــال من كلا الجنسين يجب حمايتهما من الأبوين) !..

فلا غرابة فى هذه الأجواء أن تنهار نسبة المواليد حـــتى تصل المجتمعات الغربية إلى درجة الصفر فى النمو ، وتزداد أعداد المرضى بأمراض عقلية ..ويحدث هذا فى أكثر بـــلاد الدنيا غنى وصحة !..

الأتباع والهرطقة :

(يوجد نوع من الناس يعجبون بالسلطة القوية ، يحبون النظام ويعشقون التنظيم الخارجى الذى يشبه تنظيم الجيش، حيث يكون معروفًا من يعطى الأوامر ومن يطيعها ، إنهم يحبون المناطق الجديدة التى ألحقت بالمدن ، حيث تقام المنازل متشابهة فى صفوف متراصة ذات واجهات موحدة ، ويحبون الزى الرسمى الموحد وفرق موسيقى الجيش والاستعراضات ، وغيرها من الأكاذيب التى تزين وجه الحياة وتجعلها أكثر قبولاً .. هؤلاء الناس يتمتعون بعقلية الأتباع ..إنهم ببساطة يحبون أن يكونوا أتباعًا فهم يحبون الأمن والنظام والمؤسسات والثناء من رؤسائهم .. وهم مخلصون مسالمون أوفياء .. ويحب الأتباع أن تكون عليهم سلطة ويحب أصحاب السلطة أن يكون لهم أتباع فهم جميعًا متوافقون كأنهم أجزاء من كل واحد .

ومن ناحيه أخرى يوجد أناس أشقياء ملعونون ، فى

ثورة دائمة ضد شيء ما ، يتطلعون إلى شيء جديد على الدوام ، إنهم قليلاً ما يتحدثون عن الخبز ولكنهم يتحدثون عن الحرية كثيرًا ..يتحدثون عن السلام قليلاً وعن الشخصية الإنسانية كثيرًا ، ولا يقبلون فكرة أن الملك هو الذى يمنحهم مرتباهم ، وإنما على العكس يزعمون أنهم هم الذين يطعمون الملك (ليست الحكومة هى التى تعولنا وإنما نحن الذين نعولهم) .

هؤلاء هم الهراطقة الخارجون لا يحبون السلطة ولا تحبهم السلطة . في الأديان يوقّر الأتباع الأشخاص السلطات والأوثان ، أما عشاق الحرية المتمردون فإنهم يمجدون الله فحسب .

المجتمع والجماعة

■ فى الحديث عن الأسرة أشار عزت بيجوفيتش إلى أن الأسرة والمجتمع متنافران ، وقد يؤخذ من هذا أنه يرفض المجتمع، وليس هذا يصحيح إنما أراد أن يوضح لنا أن هذا المصطلح الغربى للمجتمعات الإنسانية ينطوى على كيان مادى تقوم فيه العلاقات على المصالح المادية وتبادلها ، فالمجتمع من هذه الناحية ضرورة حياة ، ولكن المصطلح الإسلامى للتجمعات الإنسانية هو الجماعة التى تقوم العلاقات فيها على الأخوة ، فإذا كان المجتمع يمثل الناحية (البرانية) للتجمعات البشرية فإن الجماعة تمثل الناحية (الجوّانية) الجوهرية لهذه التجمعات ، لأنها تحتضن روح الإنسان ومشاعره وهويته الحقيقية .. وفى هذا يقول : يجب أن نفرق بين المجتمع الذى هو مجموعة (برانية) من الأفراد تجمعوا على أساس من المصلحة وبين الجماعة التى هى مجموعة (جوانية) من الناس اجتمعوا على أساس من الشعور بالانتماء . المجتمع قائم على المطالب المادية والجماعة قائمة على المطالب الروحية .. على الأشواق . الناس فى المجتمع

أعضاء مجهولون تجمعهم المصلحة وتفرقهم ، وفى الجماعة يكون الناس أخوة تجمعهم أفكار واحدة كما تجمعهم الثقة ..وباختصار : شعورهم بأنهم واحد .. يوجد المجتمع لأنه يسهّل لنا الحصول على المنافع ويضمن بقاءنا ..فالطفل لا يمكنه البقاء بدون مساعدة الآخرين .. والكبير لا يستطيع العيش عيشة ميسّرة بدون معية الآخرين ، وهذا هو مصدر قيام المجتمع بمعناه (البرانى) .. ولذا يمكننا أن نستخلص من هذا أن طموحات الإنسان للحياة فى مجتمع لا تنبع من وجوده الحقيقى وإنما من الضرورة .

فالسعى إلى المشاركة فى مجتمع لا يتم من ناحية الاعتبارات الجوهرية فى الإنسان وإنما من أجل المنافع التى يوفرها المجتمع . المجتمع تحكمه قوانين البقاء للأصلح .. قوانين التبعية والاستغلال .. أو على أحسن الفروض القوانين التى تسمح بالمشاركة فى المصالح . لكن الجماعة وحدها هى التى تعرف العدالة وتبادل المعونة والتضامن والأخوة .

ولقد نشأ كثير من سوء الفهم نتيجة للخلط غير الواعى بين هذين المصطلحين .

الإسلام – الوحدة ثنائية القطب

موسى وعيسى ومحمد :

للإسلام تاريخان تاريخ سابق على ظهور النبى محمد صلى الله عليه وسلم وتاريخ آخر بعد ظهوره ، هذا التاريخ اللاحق هو تاريخ الإسلام الذى نعرفه اليوم ، ولكن الدارس لا يستطيع فهمه فهمًا كاملاً ما لم يكن على معرفة كافية بتاريخ الإسلام السابق وعلى الأخص فترة اليهودية والمسيحية .

هذه الأديان الثلاثة (الإسلام واليهودية والمسيحية) قامت بدور أساسى فى تاريخ الإنسانية ، ومن خلالها اصبح الإنسان محور للتاريخ .. فى هذه الأديان عرف الإنسان أيضًا معنى الحياة الجوانية والحياة البرانية ، كما عرف معنى التقدم الجوانى والتقدم البرانى وما بينهما من علاقات وحدود .

جاء الإسلام بخبرة عن الجنس البشرى توّج بها

النجاحات التاريخية لليهودية والمسيحية وتلافى اخفاقاتها ..
وهكذا فإن الأنبياء الثلاثة : موسى وعيسى ومحمد قد
تجسدت فيهم ثلاثة إمكانات مبدئية لكل ما هو إنسانى :

فاليهودية تمثل بين الأديان اتجاه (هذا العالم الدنيوى)
فجميع أفكار ونظريات العقل اليهودى معنية بإقامة جنة
أرضية ، حتى كتاب (أيوب) (فى العهد القديم) هو حلم
بالعدالة التى لابد أن تتحقق على الأرض وليس فى العالم
الآخر وإنما (هنا والآن) .. هذا الكتاب منسوب إلى النبى
أيوب عليه السلام الذى توسع الشعراء العبرانيون فى قصته
وجعلوا منها أسطورة البرئ التقى الذى اشتد عليه العقاب
قسوة وظلمًا !!..

لم يتقبل اليهود أبدًا فكرة الخلود الأخروى .. فحتى
وقت ظهور المسيح كان الصدوقيون لا يزالون يرفضونها ..
ويقرر الفيلسوف موسى بن ميمون وهو أكبر مفكر يهودى
ظهر فى العصور الوسطى أن الخلود فكرة غير ذات
موضوع .. لأنها فى نظره تنقض نفسها بنفسها !..

أما مملكة الرب التى كان اليهود يتنبأون بها قبل ظهـــور المسيح كان من المفترض أنها ستتحقق على الأرض ولـــيس فى السماء كما يؤمن المسيحيون . ففى كتابات اليهود عن (سْفر الرؤيا) يمجّدون المسيح المنتقم الذى يـــأتى لتحقيـــق العدالة .

فالمسيح الذى كان ينتظره اليهود لم يكن نبيًّـــا يعـــانى ويموت وإنما بطلاً قوميًا يقيم دولة الشعب المختار . فالعالم الذى يكون فيه العادل تعيسًا عالم بلا معنى ..هذا هو المبدأ الأساسى للعدالة اليهودية ، بل كل عدالـــة اجتماعيـــة ، ففكرة أن تكون الجنة على الأرض فكرة يهودية فى أساسها سواء من ناحية خصائصها أو أصولها .

وكان نمط التاريخ اليهودى فى ماضيه وحاضره مصدر جاذبية قوية لجميع المقهورين وأصحاب الحظ العاثر فى كل زمان ، وقد تبنى القديس أوغسطين هذا النمط للمـــسيحية كما تبناه مـــاركس للاشـــتراكية . وجميـــع الثـــورات والطوباريات والعقائد الاشتراكية وما يجرى فى مجراها من

أفكار تتطلع إلى جنة فى الأرض — كلها يهودية صادرة من (العهد القديم) .

بل إن فكرة الماسونية عن اليقظة الأخلاقية للبشر عن طريق العلم هى فكرة وضعية يهودية ..ولعل من الأهمية بمكان الكشف عن العلاقات الخفية والظاهرة بين (الوضعية المنطقية) والماسونية واليهودية ، فهذه العلاقات والتأثيرات ليست معنوية فحسب وإنما هى علاقات واقعية ملموسة .

ويرى (سومبارت) أن تاريخ اليهود هو تاريخ التطور التجارى للعالم . وأول ما ظهرت العلوم الذرية كانت معروفة باسم العلم اليهودى ، ويمكن أن يوصف علم الاقتصاد السياسى بالصفة نفسها ، فليس من قبيل المصادفة أن تكون ألمع الأسماء فى علوم الطبيعة النووية والاقتصاد والسياسة والاشتراكية جميعًا وبدون استثناء من اليهود .

لم يسهم اليهود دائمًا فى الثقافة ولكنهم كانوا يساهمون دائمًا فى الحضارة ..ويبدو كأنهم فى هجرة دائمة من حضارة آفلة إلى حضارة أخرى وليدة . وقد حدث هذا أيضًا فى الغرب .. يقول الفيلسوف الإنجليزى

(برتراندرسل) : إن اليهود لم يكن لهم أى تأثير على الثقافة فى البلاد المسيحية) . ولكن ما أن تسود الثقافة فى مدينة ما حتى يظهر اليهود ولقد نشأت مستعمرات يهودية فى كل مدينة رئيسية على طول التاريخ ، ففى التاريخ القديم نجد مدينة صور وصيدا وأنطاكية والقدس والإسكندرية وقرطاجة وروما . وفى أسبانيا الإسلامية (الأندلس) نجد مدن قرطبة وغرناطة وتوليدو وأشبيلية . وفى بداية عصر النهضة نجد مدن أمستردام وفينيسيا ومارسيليا ، وفى العصر الحاضر فى كل مدن العالم الكبرى وعلى الأخص المدن الأمريكية . هذه هى خطى الأقدام التى صنعت تاريخ اليهود .

وفى تمويل اليهود لرحلة (كولمبس) رمز على إسهامهم مباشرة فى اكتشاف عالم جديد شرع يمارس الحضارة منذ بدايتها الأولى . وكان أب العصر النووى الحديث يهوديًا أيضًا وهو أينشتين . وهكذا كان اليهود فى كل الظروف حملة التقدم البرانى المادة ، بمثل ما كان المسيحيون حملة التقدم الجوانى .

■ **الدين المجرد :**

المادية اليهودية (أو الوضعية) هى التى لفتت العقل الإنسانى (خلال التاريخ اليهودى) إلى العالم وأثارت الاهتمام بالواقع الخارجى ، أما المسيحية فقد لفتت الروح الإنسانية إلى نفسها، فالواقعية الصريحة للعهد القديم لا يمكن التغلب عليها إلا بمثالية حاسمة للعهد الجديد .

لا يصح — فى المسيحية شطر الطاقة الإنسانية إلى اتجاهين متعاكسين : اتجاه السماء واتجاه الأرض ، (فلا يستطيع إنسان أن يخدم سيدين ، فهو إما أن يكره أحدهما ويحب الآخر أو يتمسك بأحدهما ويستخف بالآخر ، إنك لا تستطيع أن تخدم الرب وتخدم مامون) ، (وكلمة مامون فى الكتابات الإنجيلية تشير إلى شيطان الشهوة والمال) ...

لقد لاحظت السلطات الكنسية وجود اختلافات جوهرية بين روح (العهد القديم) و (العهد الجديد) حيث يذهب إنجيل مرقص إلى أن المسيح قد ألغى قانون موسى

واستبدل (يهوا) إله العدالة ومنقذ العالم المادى بإله الحب الذى خلق عالم الغيب اللا مرئى ، وكما (يقال) : فى هذا الإنجيل تبدو مبادئ الزهد واللا عنف والامتناع عن مقاومة الشر أكثر وضوحًا من الأناجيل الأخرى .

ولذلك فإن الدين منذ البداية ينبذ أى توجّه لتغيير العالم الخارجى أو محاولة جعله عالمًا كاملاً . فالدين المجرد — من هذا المنطلق — يحكم على أى اعتقاد إنسانى بأن تنظيم العالم الخارجى أو تغييره يؤدى إلى زيادة فى الخير الحقيقى — بأنه خطيئة — أو هو فى الحقيقة من أنواع خداع النفس .. فالدين إجابة على سؤال كيف تحيا فى ذاتك وتواجه هذه الذات ، وليس إجابة على سؤال كيف تعيش فى العالم مع الآخرين .. إنه معبد على قمة جبل أو ملاذ على الإنسان أن يرتقى إليه تاركًا خلفه خواء عالم لا سبيل إلى إصلاحه .. عالم يهيمن عليه الشيطان وحده .. هذا هو الدين المجرد .

إن الطريق الذى يدعو إليه الدين طريق شاق ولا يصلح لسلوكه إلا من كرسوا أنفسهم له .. وعندما صرح القرآن

﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ كان يوجـه الإشـارة بوضوح إلى المسيحية .. ولذلك عرفت الأديـان المجـردة طريقين أو برنامجين : حيث يوجد فى البوذية (الماهيان) أو الطريق العظيم وهو طريق شاق أليم مقتصر على الصفوة ، وطريق آخر يسمى (الهنايانا) وهو طريق ميسّر وأقل قسوة مفتوح لعامة الناس . وفى المسيحية تقسيم مماثل : فهنـاك حياة خاصة للقساوسة والنظام الاكليروسى ، فى مقابـل الحياة العادية لعامة الناس . العزوبة لرجال الدين فى مقابل الزواج المسموح به لعامة الناس ، فالعزوبة هـى الطريـق الصحيح الأمثل أما الزواج فتسوية أو حل وسط .

إن القوى (الجوانية) المصحوبة بنكران الذات مـسألة شخصية بأسرها ترتبط دائمًا برفض لكل نشاط اجتماعى .. فالمسيحية والدين (المجرد) بصفة عامة — مـن حيـث معارضتهما للعنف — لا يمكن لهما التأثير فى أى شيء من شأنه أن يحسّن من وضع الإنسانية من الناحية الاجتماعية . فـالتغيرات الاجتماعيـة لا تـأتى بواسـطة الـصلوات والأخلاقيات (وحدهما) وإنما عن طريـق قـوة مدعّمـة بالأفكار أو المصلحة . ومن هنا جاء الاتهام — الذى قـد

يبرره التاريخ ولكن لا تبرره الأخلاق – أن الدين إنما يدعّم الأمر الواقع السائد فى عصره ، وأنه بهذا يخـــدم الطبقـــة الحاكمة بصرف النظر عن المعارضة النفسية .. والقـــرآن يسمى المسيحية (بلاغًا) وتسميها الأناجيـــل (بـــشارة) .. بشارة لأعمق ما فى الوجود الإنسانى من حقائق: (حـــبّ جارك كما تحب نفسك) .. (حـــب أعـــدائك وبـــارك لاعنيك) .. (لا تقاوم الشر) .. هذه المطالب تسير ضـــد فطرة المنطق العملى فى حياة الإنسان مما يوجهنا نحو البحث عن معناها الحقيقى .. إنها توحى بالبشارة لعالم آخر كما قال المسيح : (إن مملكتى ليست فى هذا العالم) .

قبول المسيح ورفضه :

يؤثر الدين فى العالم فقط عندما يصبح هو نفسه دنيويًا بمعنى أن يصبح معنيًا بالسياسة فى معناها الواسع . ومن هذه الناحية يقال أن الإسلام مسيحية أعيد تكييفها تجاه العالم .. هذا التعريف يكشف لنا عن التشابه وعن الاختلاف بين الدينين .

فى تصنيف (هيجل) للأديان اعتبر الإسلام استمرارًا لليهودية ..وهذه الفكرة عن الإسلام تنبع من وجهة نظر مسيحية ، وذهب (شبنجلر) إلى رأى يشبه هذا عندما قال: (إن كتاب أيوب) كتابة إسلامية . وفى كتابها (أنماط من الأديان المقارنة) وضعت (مرسيا إليادى) النبى محمد صلى الله عليه وسلم على مفترق طريق التحول من المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التحول الروحى للجنس البشرى . ومن ثم فالمرحلة الثالثة – التى لم تنته بعد – بدأت بمحمد صلى الله عليه وسلم، حيث تذهب إليادى إلى أن تاريخ العقل الإنسانى هو عملية (علْمنة) عامة ، وبهذه الرؤية يقف محمد صلى الله عليه وسلم على حافة

سيادة المسيحية وبداية العصر العلمانى الحديث ، بمعنى أنــه يقف فى النقطة البؤرية للتوازن التاريخى .

فإذا نحّينا جانبًا رؤية إليادى التاريخية ذات البعد الواحد — وهى رؤية غير مقبولة من وجهة نظرنا — نستبقى منها إشارتها إلى الموقف (الوسط) للإسلام ولمحمد صلى الله عليه وسلم الذى تتميز به هذه الرؤية . هذا الانطباع يظل ثابتًا بصرف النظر عن اختلاف (المقتربات) أو التفسيرات .

لقد تجنب المسيح دخول القدس لأنها مدينة الفرّيسين [*] والمجادلين والكتاب والكفار وأصحاب الإيمان السطحى، ومن ناحية أخرى لا توجه الاشتراكية خطابها لأبناء الريف وإنما تتوجّه به لأبناء المدن الكبرى ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان يذهب إلى غار حراء ليتعبد ولكنه كان يعود فى كل مرة إلى المدينة الكافرة (مكة) لكى يؤدى رسالته .

(*) الفرّيسون طائفة من اليهود على عهد المسيح عليه السلام عرفت بتمسكها بالطقوس الشكلية وبالتقوى الكاذبة .

ومع ذلك فإن كل ما حدث فى مكة لا يمكن وصفه بأنه (الإسلام) لأن الإسلام اكتمل وبلغ ذروته فى (المدينة) .. لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء صائمًا متنسكًا متصوفًا حنيفًا ، وكان فى مكة مبشّرًا بفكرة دينية أما فى المدينة فقد أصبح داعية إلى (الفكرة الإسلامية) .. لقد اكتملت الرسالة المحمدية وتبلورت فى المدينة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا) .. هناك فى المدينة وليس فى مكة كانت بداية ومصدر النظام الإسلامى الاجتماعى كله .

كان لابد لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يعود من الغار فلو أنه لم يعد لبقى حنيفيًا ولكنه عاد من الغار وشرع يدعو إلى الإسلام ، وهكذا تم الامتزاج بين العالم الجوانى وعالم الواقع .. بين التنسك والعقل .. بين التأمل والنشاط لقد بدأ الإسلام صوفيًا ثم أخذ يتطور حتى أصبح دولة ، وهذا يعنى أن الدين قد تقبل عالم الواقع وأصبح (إسلامًا) .

الإسلام نسخة من الإنسان ، ففى الإسلام تمامًا ما فى الإنسان .. فيه تلك الومضة الإلهية .. وفيه تعاليم عن الواقع

والظلال .. بالإسلام جوانب قد لا تروق للشعراء الرومانسيين فالقرآن كتاب واقعى لا مكان فيه لأبطال الملاحم .. والإسلام بدون إنسان يطبقه يصعب فهمه ، وقد لا يكون له وجود بالمعنى الصحيح ...

لم تبلغ المسيحية أبدًا الوعى التام بوحدانية الله : فبها مفهوم مفعم بالحيوية عن الألوهية . ولكن لا توجد بها فكرة واضحة عن الله .. وكانت مهمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل الفكرة الإنجيلية عن الله أكثر وضوحًا وأقرب إلى عقل الإنسان وفكره ، فالله هو الإله الواحد الذى تتوق إليه النفوس وتصبو إليه أفكار نبيله فى عقولنا .

فى الأناجيل الإله (أب) وفى القرآن الله (رب) العباد ، الإله فى الأناجيل محبة ، وفى القرآن (جلال يستحق الحمد والثناء) . هذه الخاصية فى فهم المسيحية للألوهية انقلبت فيما بعد إلى سلسلة من الصور المختلطة ضحّت بالوحدانية الأصلية للمسيحية فى سبيل الثالوث والأم العذراء والقديسين ... مثل هذا التطور غير ممكن فى الإسلام ،

فبرغم كل ما مر به الإسلام من نكبات تاريخية ظل الإسلام (أنقى أديان التوحيد) . النفس الإنسانية قادرة على تصور الألوهية فحسب ، أما خلال العقل فإن الألوهية تتحول إلى فكرة (الله الواحد الأحد) .

إله المسيحية هو رب عالم الأفراد (الناس والأنفس) بينما يملك الشيطان زمام العالم المادى ، ولذلك فإن الاعتقاد المسيحى فى الله يتطلب الحرية الجوّانية . بينما العقيدة الإسلامية فى الله تنطوى إضافة إلى ذلك على الحرية البرانية أيضًا . إن الاعتقادين الأساسيين فى الإسلام : (الله أكبر) و (.. لا إله إلا الله) هما فى الوقت نفسه أعظم القوى الثورية فى الإسلام .

لم تستطع المسيحية كذلك أن تتقبل فكرة أن يظل الإنسان الكامل إنسانًا . ومن ثم استنتج المسيحيون من كلام عيسى فكرة (الإله الإنسان) ومن ثم اعتبروا عيسى ابنًا لله ، ولكن ظل محمد صلى الله عليه وسلم إنسانًا فقط. لقد أعطى محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للإنسان

والجندى فى الوقت نفسه .. أما عيسى عليه السلام فقد خلّف انطباعًا ملائكيًا .

كذلك كان الأمر بالنسبة للنساء فقد احتفظ القرآن لوظائفهن الطبيعية كزوجات وأمهات على عكس صورة (مارتا) ومارى فى الأناجيل .. ولذلك فإن الهجوم المسيحى على طبيعة محمد صلى الله عليه وسلم الإنسانية الخالصة — أكثر مما يجب — هو هجوم ناتج فى الواقع عن سوء فهم . فالقرآن نفسه يؤكد أن محمدًا ليس إلا إنسانًا :

﴿قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولاً﴾ .. ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد﴾ ، كما كشف القرآن عن الاتهامات التى ستوجه إليه فى المستقبل حيث قال : ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾ .

إن مجرد المقارنة بين قاموس المفردات المستخدمة فى الأناجيل والتى وردت فى القرآن يؤدى بنا إلى العديد من الاستنتاجات الواضحة .. فى الأناجيل يتكرر ورود ألفاظ

معينة تكرارًا ملحوظًا مثل : مبارك ، مقـــدس ، مـــلاك ، الحياة الأبدية، سماوات ، الفرّيس ، خطيئة ، حب ، ندم ، عضو ، سر ، الجسد (كحامل للخطيئة) ، النفس ، تطهّر ، خلاص .. إلخ . بينما فى القرآن نجد المصطلحات نفـــسها مصاغة على صورة هذا العالم وقد اكتسبت واقعية وتحديدًا مثل : العقل ، الصحة، التطهّر (الوضوء)، القوة، الـــشراء، العقد، الرهان، الكتابة، الأســـلحة، القتـــال، التجـــارة، الفاكهة، العزم، الحذر، العقاب، العدل، الربح، الانتقـــام، الصيد، الشفاء، المنافع .. إلخ .

لا يعرف الإسلام كتابات دينية (لاهوتية) معينة بالمعنى المفهوم فى أوربا للكلمة ، كما أنه لا يعرف كتابات دنيوية مجردة ، فكل مفكر إسلامى هو عالم دين ، كما أن كـــل حركة إسلامية صحيحة هى حركة سياسية .

ويمكن استخلاص نتائج مماثلة من المقارنة بين المـــسجد والكنيسة ، فالمسجد مكان للناس أما الكنيسة فهى (معبد الرب) .. فى المسجد يسود جو من العقلانية وفى الكنيسة

جو من الصوفية ..المسجد بؤرة نشاط دائم ، وهو (عادة) قريب من السوق فى قلب المناطق الآهلة بالسكان ، أما الكنيسة فتبدو أقل التحامًا ببيئتها ، ويميل التصميم المعمارى للكنيسة إلى الصمت والظلام والارتفاع إشارة إلى عالم آخر .. وعندما يدخل الناس كاتدرائية .. يتركون خارجها كل اهتمام بالدنيا كأنهم داخلون إلى عالم آخر ، أما المسجد فمن المفروض أن يناقش الناس فيه بعد انتهائهم من الصلاة هموم دنياهم .. وهذا هو الفرق ..

تستطيع الأناجيل أن تقول : (عش كما تحيا الزنابق فى الحقول ، ولكن القرآن يحث الناس على الكدح والسعى وراء العيش فيقول : ﴿وجعلنا النهار معاشًا﴾ ، ويذكرهم بنعمة النهار المضئ الذى يسهّل السعى فيقول : ﴿الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ .

يؤكد القرآن — على خلاف — الأناجيل أن الله خلق الإنسان ليكون سيدًا فى الأرض (خليفة) ، وأن الإنسان

يمكنه تسخير الطبيعة والعالم خلال المعرفة والعمل أى بالعلم والفعل. من هذه الحقيقة وبتركيز الإسلام علـــى القـــانون والعدالة يبرهن على أنه لا يستهدف الثقافة فقط وإنما يسعى لبناء حضارة أيضًا.

وقد يُستدل على موقف الإسلام تجاه الحـــضارة مـــن خلال اهتمامه بالقراءة والكتابة باعتبارهما أقـــوى محـــرك للحضارة ، فلا غرابة أن يعنى بهما الوحى فكانت أول مـــا نزل على محمد صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن ﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ .. وقد تبدو القراءة غريبة عـــن الدين (المجرد) .. فقد بقيت الأناجيل تقليدًا شفويًا لفتـــرة طويلة من الزمن ... وعلى عكس ذلك اعتاد محمد صـــلى الله عليه وسلم أن يملى آيات القرآن على كُتّاب الوحى فور نزولها ، وهى ممارسة لم يكن عيسى (عليه السلام) ليقبلها لأنها أقرب ما تكون إلى اهتمامات الفرّيسيين الـــتى كـــان يستنكرها .

إن إصرار القرآن على حق محاربة الظلـــم ﴿والـــذين أصابهم البغى هم ينتصرون ...﴾ ليس من قبيل التدين بمعناه الضيق فمبادئ اللا عنف واللامقاومة أقـــرب إلى مبـــادئ الدين المجرد وهى مبادئ تظهر بشكل متماثـــل فى تعـــاليم عيسى (عليه السلام) ، وفى الفكر الدينى الهندى ، حيـــث نجد لها امتدادًا عند غاندى فى الستياجراها ، وهى أسلوب للنضال عن طريق اللاعنف والعصيان المدنى . وعندما أقـــر القرآن القتال بل أمر به بدلاً من الرضوخ للمعاناة والظلـــم لم يكن يقرر مبادئ دين أو أخلاق وإنما كان يضع قواعد سياسية واجتماعية . لقد كان محمد صلى الله عليه وســـلم مقاتلاً ...

كان لتحريم الخمر فى الإســـلام – بالدرجـــة الأولى – صفة اجتماعية فالخمر شر اجتماعى ، وليس فى الدين المجرد شيء ضد الخمر ، بل إن بعض الأديان استخدمت الكحول كعامل صناعى يساعد على استحضار النشوة ، شـــأنه فى ذلك شأن الإظلام فى الكاتدرائيات ورائحة البخور المعطرة

فكلها وسائل تؤدى إلى هذا النوع من المخدر المطلوب .. ولا يرى المسيحيون خطأ فى أن يتحول الخمر – رمزيًا – إلى دم المسيح خلال القربان المقدس فلا نجد فى المسيحية تحريمًا للخمر كما حرمها الإسلام واعتبرها من الكبائر .. ذلك لأن الإسلام عندما حرم الخمر سلك مسلك العلم لا مسلك الدين المجرد .

كيف انشطرت وحدة الإسلام :

لقد انشطرت وحدة الإسلام على يد أناس قصروا الإسلام على جانبه الدينى المجرد فأهدروا وحدته ، وهى خاصيته التى ينفرد بها عن سائر الأديان . لقد اختزلوا الإسلام إلى دين مجرد أو إلى صوفية فتدهورت أحوال المسلمين ، ذلك لأن المسلمين عندما يضعف نشاطهم ، وعندما يهملون دورهم فى هذا العالم، ويتوقفون عن التفاعل معه تصبح الدولة الإسلامية كأى دولة أخرى ،

ويصبح تأثير الجانب الديني فى الإسلام كتأثير أى دين آخر وتصبح الدولة قوة عريانة لا تخدم إلا نفسها ، فى حين يبدأ الدين (الذى أصبح خاملاً) يجــرّ المجتمــع نحــو الــسلبية والتخلف ، ويشكل الملوك والأمراء والعلمــاء الملحــدون ورجال الكهنوت وفرق الدراويش والــصوفية والــشعراء السكارى ، يشكلون جميعًا الوجه الخــارجى للانــشطار الداخلى الذى أصاب الإسلام . وهنا نعــود إلى المعادلــة المسيحية : (اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) .

إن الفسلفة الصوفية والمذاهب الباطنية تمثل — على وجه اليقين — نمطًا من أكثر الأنماط انحرافًا ، ولذلك يمكــن أن نطلق عليها (نصرنة) الإسلام ..

نقول هذا الكلام وفى ذهننا الممارسات الخاطئة لــبعض فرق الدراويش التى انتهت بهم إلى السلبية والانسحاب من الحياة النشطة ، ولكن إذا كان الحديث عن التدين العميق فإننا نقول إن كل مسلم ملتزم هو صوفى بمعنى من المعانى ، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان فى مقدمة الجميع .

وهناك خطر التمادى فى الاتجاه الآخر وأعنى به (مادية) الإسلام ، ولكن الانطباع العام السائد أن مادية الإسلام أو مجموع العناصر الطبيعية والاجتماعية المتضمنة فى صلبه تحصّن العالم الإسلامى ضد الأفكار المادية المتطرفة .. ولذلك فإن عدم (نجاح) الثورة الشيوعية فى الدول الإسلامية ليس من قبيل المصادفة ، فالإسلام لا يحتاج إلى (ماركس) لأن فيه (عدالته) الخاصة ، إذا صح هذا التعبير .

• يقصد العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

(ثنائية أعمدة الإسلام الخمسة)

■ **الصلاة :**

لا تصح الصلاة فى الإسلام بدون وضوء ، بينما فى الدين المجرد يمكن أداء الصلاة مع وجود القذرة ، وتسمى حينذاك (القذارة المقدسة) كما عرفتها نظم الرهبنة فى كل من المسيحية والهندوسية ، فالرهبان الذين يتجنبون النظافة يشعرون شعورًا دينيًا أصيلاً أن إغفال البدن بل الإهمال المتعمد لنظافته يقوى الجانب الروحى فى الصلاة ، فالصلاة (عندهم) تكون أصدق إذا تجنب (المرء) أى عناية بالبدن .

أما فى الإسلام فالوضوء والحركات فى الصلاة تشكل الجانب العقلى منها ، فلا تجعلها مقصورة على جانبها الروحى المجرد بل تضيف إليها النظام والصحة . وفى الوضوء فجرا بالماء البارد يوجد بالتأكيد شيء من الروح العسكرية (تؤكدها) صفوف صلاة الجماعة المتلاحمة .

وتشمل الحركات الخارجية للصلاة جميع أعضاء الجسم

تقريبًا ولأنها تؤدى خمس مرات فى اليوم على الأقل فهى وسيلة فعالة لعلاج الخمول والاسترخاء .

فالصلاة بهذا الجمع بين الروحى والبدنى فى إطار واحد تعتبر أكمل تصوير لما يطلق عليه عزت بيجوفيتش (الوحدة ثنائية القطب) .

حتى الوضوء الذى يُحسب على جانبه البدنى والعقلانى فى الصلاة هو بدوره ليس أحادى الجانب بل فيه ثنائية ، فهو نظافة وصحة ولكنه فضيلة روحية أيضًا لذلك .. يقول الله سبحانه (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ، وعبارة (النظافة من الإيمان) لا توجد إلا فى الإسلام ، فالبدن ونظافته فى جميع الأديان الأخرى المعروفة خارج الاعتبار .. وصلاة التراويح المصاحبة للصيام فى رمضان لها أثرها الصحىّ ولها هدف طبى .. وهو أيضًا ممكن فقط فى الإسلام .

إن مواقيت الصلاة مثل مواقيت الصيام والحج تعتمد جميعًا على حقائق فلكية معينة .. فالصلاة الإسلامية تشتمل

على عناصر روحية وعناصر مادية وطبيعية على حد سواء .. وكان التطور السريع لعلم الفلك فى قــرون الإســلام الأولى وثيق الصلة بحاجة المسلمين إلى التحديــد الــدقيق للمكان والزمان ، ولدينا أسباب عديدة للاعتقاد بأن هذا التطور كان هدفًا من أهداف الإسلام .

هذا الجانب من الصلاة (سمّه إن شئت الجانب الدنيوى أو العملى أو الطبيعى) يزكى بقوة صفة أخرى هى الصفة الاجتماعية . فالصلاة ليست مجرد اجتمــاع النــاس لأداء الصلاة فى جماعة ، ولكنها أيضًا مناسبة للعلاقات الشخصية المباشرة ، وبهذا الاعتبار تكون الصلاة ضد السلبية والفردية والانعزال ، فإذا كانت الحياة تفرق الناس فــإن المــسجد يجمعهم ويمزجهم . إنها مدرسة يومية للتــآلف والمــساواة والوحدة ومشاعر الودّ . ويتوّج هذا الاتجاه الاجتماعى فى الصلاة .. (خصوصًا) صلاة الجمعة .. فهى تكاد تكــون صلاة حضرية سياسية ، تقام فى الإجازة الأســبوعية ، فى مسجد مركزى جامع يحضره بعــض رجــال الدولــة ..

وخطبة الجمعة قبل الصلاة جزء لا يتجزأ من الصلاة ، وهى بصفة رئيسية رسالة سياسية .. وقد يقول المسيحيون إن هذا يتعارض مع مفهوم الصلاة ، وهو استنتاج يتفق مع الطريقة المسيحية فى التفكير ، ولكنه استنتاج غير مبرّر من وجهة نظر الإسلام .

الزكاة :

التحول من الدين المجرد إلى الإسلام ظاهر بوضوح فى مسألة الزكاة ، ففى المرحلة المكية كانت الزكاة تمنح للفقراء على سبيل التطوع (صدقات تطوعية) .. ولكن عندما تأسس مجتمع المدينة — وهى اللحظة التاريخية التى تحولت فيها الجماعة الروحية إلى دولة — بدأ محمد صلى الله عليه وسلم يعامل الزكاة باعتبارها التزامًا قانونيًا (فريضة شرعية) ، أى ضريبة يدفعها الأغنياء للفقراء .. وهى — على قدر علمنا — أول ضريبة من نوعها فى التاريخ ، كأن الإسلام قد أنشأ الزكاة عندما أضاف الإلزام القانونى إلى المؤسسة المسيحية للصدقة .

لقد جاء فرض الزكاة استجابة لظاهرة ليست فى حد ذاتها واحدية الجانب . فالفقر ليس قضية اجتماعية بحتة ، فليس سببه العوز فقط وإنما أيضًا فى الشر الذى تنطوى عليه النفوس البشرية ، فالحرمان هو الجانب الخارجى للفقر وأما

جانبه الداخلى فهو الجشع (أو الإثم) وإلا فكيف نفسر وجود الفقر فى مجتمعات ثرية ؟ إننا فى النصف الثانى من القرن العشرين ولا يزال ثلث البشرية يعانى من نقص مزمن فى التغذية ، فهل يرجع هذا إلى نقص فى الغذاء أم إلى نقص فى الشعور ! ؟ ، إن أى حل لمشكلة الفقر ينبغى أن يتضمن الاعتراف بالذنب ... فكل حل اجتماعى لابد أن يتضمن حلاً إنسانيًا ، بمعنى أنه لا ينبغى الاكتفاء بتغيير العلاقات الاقتصادية ، بل أيضًا العلاقات الإنسانية ، يجب إحداث التوزيع العادل ، وكذلك التنشئة الصحيحة للناس التى تقوم على الحب والتعاطف ...

الزكاة مرآة للناس ... إنها تقضى على الفقر بين المحتاجين وتقضى على اللا مبالاة بين الأغنياء ، إنها تقلل من التفاوت المادى بين الناس وتقربهم بعضهم من بعض .

إن غاية الإسلام ليست هى القضاء على الأغنياء وإنما القضاء على الفقر ... والاعتبارات القانونية المتصلة بالزكاة مقصورة على : كم تعطى مما تملك لمن ؟ ، إلا أن مؤسسة

الزكاة تعتبر أن مبدأ التضامن فى حد ذاته هو الأهم مــن مجرد النسب المستحقة والأرقام ، فطبقًا لهذا المبدأ يمثل التزام أغنياء المجتمع بكفالة فقرائه الأهمية الحاسمة فى القضية .. ولا يساورنا أدنى شك أنه إذا قام نظام إسلامى صحيح فــإن سيناضل من أجل تحقيق الهدف من هذا المبدأ بصرف النظر عن مستوى الدخل أو إحصاءات السكان ... وحيــث أن الزكاة حق للفقراء فإنه سيتم توفيرها بالقوة إذا لزم الأمر .

وفقًا لبعض المصادر ذكر الإلزام بالعطــاء (الــصدقة) والتوصية بها فى اثنين وثمانين موضعًا بــالقرآن ، ونتيجــة لإصرار التعاليم الإسلامية على العطاء والصدقة جرت ثورة هادئة فى المجتمعات المسلمة تبلورت فى مؤسسة (الأوقاف)، والوقف من حيث انتشاره وأهميته لا يوجد لــه مثيــل فى البلاد غير الإسلامية ، فلا تكاد توجد دولة إسلامية واحدة ليس فيها ممتلكات كبيرة مخصصة للأوقاف وخدمة الخــير العام .. لم يذكر الوقف فى القرآن ولكنــه لم يظهــر فى المجتمعات الإسلامية بمحض الصدفة ، إنما كــان ظهــوره

نتيجة لسيادة روح التضامن ولتأثير وظيفة الزكاة التعليمى فى المجتمعات المسلمة ، هذه التجربة الإنسانية توفر الأمل فى أن غايات اجتماعية معينة يمكن تحقيقها بدون عنف .

تأكد فى القرآن توحيد فريضتى الصلاة والزكاة (واقترانهما) بصفة مستمرة ، وقد روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه (لقد أمرتم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فمن لا يؤدى الزكاة لا صلاة له) .. ولا يوجد تفسير لذلك إلا أنها دعوة ضد فصل الأعمال عن الإيمان أو فصل الإنسان عن الدنيا ، وهى دعوة إسلامية فى صميم جوهرها .. وقد استخدم أبو بكر ـ الخليفة الأول — المنطق نفسه عندما قرر استخدام القوة ضد مانعى الزكاة .. وذكر أنه قال فى هذا الموقف : "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة" .

إن المعادلة القرآنية المألوفة التى تجمع بين الصلاة والزكاة ليست إلا صيغة معينة من معادلة أخرى (ثنائية القطب) أكثر تكرارًا وأكثر عمومية وهى (آمن .. وافعل الخير) (قل

آمنت ثم استقم) .. والتى يمكن اعتبارها الأساس الجوهرى للأوامر الدينية والأخلاقية والاجتماعية فى القرآن . هـــذه المعادلة تحدد العمودين اللذين لا بديل لهما واللذين يقـــوم عليهما الإسلام كله .. ولعل من المناسب النظر إلى هـــذه المعادلة باعتبارها أول صيغة للإسلام فأرفعها ، فالإســـلام بكامله يقع تحت صيغة (الوحدة ثنائية القطب) .

بهذا الأسلوب التحليلى المبدع يتناول عزت بيجوفيتش النطق بالشهادتين والصوم والحج ليكشف فيهـــا جميعـــاً انطباق مبدأ (الوحدة ثنائية القطب) ، بل إنه يتجاوز أعمدة الإسلام الخمسة ليكشف لنا عن انطباق هذا المبدأ فى أمور أخرى كثيرة قد لا تخطر على بال أحد فيقول : إن الثنائية التى يتميز بها الإسلام واضحة فى أمور أخرى كثيرة ، أنظر إلى هذه الآية من القرآن : ﴿لا يؤاخذاكم الله بـــاللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فـــصيام ثلاثـــة أيـــام ...﴾ ،

وهكذا (فى هذا الموقف) ترى الأعمال الاجتماعية المفيدة فى العالم الخارجى لها أولوية على الأعمال الروحية الخالصة ، فالأخيرة تطبق فقط كبديل عندما يستحيل أداء الأولى .

يكرس العهد القديم فكرة الأذى بالأذى ، ويكرس العهد الجديد العفو ، فانظر إلى القرآن كيف يركّب جزْئيًا من هاتين الذرتين : ﴿وجزاء سيئة مثلها ، فمن عفى وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين﴾ .. ويكاد التركيب يبدو مباشرًا وآليا فى بعض الأحيان ، ففى سياق ذكر التوراة ترد فى القرآن هذه الآية : ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ ، وانظر أيضًا فى هذه الآية : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ ، إن الإسلام ليس دينًا يحرم على الإنسان فاكهة الأرض ولا يسرف فى التحريم ، إنه لا يلعن

الأرض بل على العكس تمامًا فقد جعل ترابها طهورًا : فإذا لم يجد الإنسان الماء للطهارة والوضوء فتراب الأرض بديل يمكن استخدامه فيما يعرف (بالتّيمم) ، والرمزية فى التيمم (وضوء بغير ماء) ليس لها معنى سوى ذلك .

بعض المسلمات الإسلامية دينية من حيث عنوانهـا أو صيغتها أو أصلها فقط ولكنها إسلامية بأحسن معنى لهـذه الكلمة .. وينطبق هذا على الأمر بالنظافة وتحريم الخمـر ، والأوامر المشابهة ليست من الدين المجرد لسبب بسيط أنهـا تنبع من العناية بالحياة (البرّانيـة) الماديـة أو الاجتماعيـة وتكتسب معناها الكامل فى إطارها الحضارى .. فالمـدن الكبرى المزدحمة اليوم لا يمكن الحفاظ على الحياة فيها بدون قدر من النظافة الشخصية والعامة ، أما إدمان الخمر فقـد أثبت أنه أكبر مشكلة فى عصر التكنولوجية والحياة المدنية المعاصرة ...

تنطبق الثنائية أيضًا على مصادر الإسلام ، فللإسـلام مصدران أساسيان هما القرآن والسنة النبوية ، يمثلان معًـا

الإلهام والخبرة ، الخلود والزمن، التفكير والممارسة ، الفكرة والحياة .. وتشير التفاسير القرآنية إلى أنه بدون السنة النبوية أى بدون حياة النبى صلى الله عليه وسلم يتعسر فهم القرآن فهمًا صحيحًا ، إنه فقط من خلال فهمنا لحياة الرسـول صلى الله عليه وسلم يعرض الإسلام نفسه كفلسفة عملية أو خطة شاملة للحياة كلها ، {كـان خلقـه القـرآن} و{كان قرآنًا يمشى علـى الأرض} .. (هكـذا وُصـف الرسول ووُصفت حياته) .

فإذا أضفنا إلى تحليلنا لهذين المصدرين فكرة (الإجمـاع) فإننا نظل فى إطار الثنائية : فالإجماع عند الإمام الـشافعى يعنى اتفاق جميع الآراء وعند الطبرى والرازى اتفاق أغلب علماء الفقه .

ولم يكن الإسلام ليكون ما هو عليه لو أنه لم يجمع فى ثنائيته بين مبدأ الصفوة ومبدأ العدد معًا ، ففى الإجمـاع توجد الصفوة النوعية (الارستقراطية الفكريـة) ويوجـد الجانب العددى (الديمقراطية) ...

وأخيرًا نجد أن أعظم شخصية فى الإسلام هى شخصية المجاهد الشهيد فى سبيل لله .. فهو راهب وجندى فى شخص واحد ، فما انقسم فى المسيحية إلى مبدأ للرهبانية ومبدأ للفرسان اتحد فى الإسلام فى شخصية الشهيد (رهبان بالليل وفرسان بالنهار) .. إنها وحدة الروح والدم وهما مبدأن ينتميان إلى عالمين مختلفين .

لا يحتوى القرآن على حقائق علمية جاهزة ، ولكنه يتضمن موقفًا علميًا جوهريًا (يتجلى) فى اهتمامه بالعالم الخارجى وهو أمر غير مألوف فى الأديان . يشير القرآن إلى حقائق كثيرة فى الطبيعة ويدعو الإنسان للاستجابة إليها . ولا يبدو هنا الأمر بالعلم وبالقراءة متعارضًا مع فكرة الألوهية ، بل إنه قد صدر باسم الله : ﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ .. بمقتضى هذا الأمر لا يلاحظ الإنسان ويبحث ويفهم طبيعة خلقت نفسها (كما يزعم الماديون) وإنما يلاحظ ويفهم الكون الذى أبدعه الله ، ولذلك فإن الملاحظة (المطلوبة) ليست بلا هدف أو خالية من الشوق

وإنما هى مزيج من العلم وحب الاستطلاع والإعجاب الدينى ، وكثير من أوصاف الطبيعة فى القرآن على درجة عالية من الشاعرية ..

يورد عزت بيجوفيتش فى هذا الصدد اثنتى عشرة آية كدليل على هذه الحقيقة نذكر منها هذه الآية :

﴿إن الله فالق الحب والنوى يُخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، ذلك تقدير العزيز العليم، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًا متراكبًا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ .

■ يقول عزت بيجوفيتش :

فى هذه الآيات التى اتجهت بكلّيتها إلى الطبيعة نجد تقبُّلاً كاملاً للعالم ، ولا أثر فيها لأى نوع من الـصراع مـع الطبيعة ، فالإسلام يبرز ما فى المادة من جمال ونُبل كما هو الحال بالنسبة للجسم فى موقف الصلاة ، فالعالم ليس مملكة للشيطان، وليس الجسم مستودعًا للخطيئة ، حـتى عـالم الآخرة ، وهو غاية آمال الإنسان وأعظمها ، صوّره القرآن مغموسًا بألوان هذا العالم ، ويرى المسيحيون فى هذا حسّيةً تتنافى مع عقيدتهم، ولكن الإسلام لا يرى العـالم المـادى مستغربًا فى إطاره الروحى .

وبعض آيات القرآن توقظ الفضول الفكرى وتعطى قوة دافعة للعقل المكتشف: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حى﴾، ﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعنـاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل﴾ .

والآية الأخيرة على الأخص تستفز الفكر فهى تطــرح مشكلة تكمن فى أعماق علوم الكيميـــاء . والنتيجـــة أن المسلمين هم الذين وضعوا النهاية للجدل الذى دار حـــول قضايا جوهرية استحوذت على المسيحية عندما اتجهوا إلى الكيمياء ، وكان هذا تحولاً من الفلسفة الصوفية إلى العلم العقلانى .

وفى جميع الآيات التى سبق اقتباسها من القرآن عنـــصر مشترك وهو الدعوة إلى الملاحظة وهـــى فاعليّـــة بـــدأت بواسطتها قدرة الإنسان على العالم الطبيعى .

ولقد أثبت البحث فى أساس القوة الغربية أن هذه القوة لا تكمن فى أسلحتها واقتصادها فهذا هو المظهر الخارجى للأشياء فقط ، وإنما يكمن فى الملاحظة والمنهج التجريبى فى التفكير الذى ورثته الحضارة الغربية من (بيكون) (الـــذى استمده بدوره من المسلمين فى الأندلس) .

■ كان روجر بيكون يجيد اللغة العربية وقد تتلمذ على يد الأساتذة المسلمين الأندلسيين .

من المستحيل تطبيق الإسلام فى الممارسة العملية انطلاقًا من مستوى بدائى ، فالصلاة لا يمكن أداؤها أداء صحيحًا إلا بضبط الوقت والاتجاه فى المكان ، فالمسلمون (مع انتشارهم على سطح الكرة الأرضية) عليهم أن يتوجهوا جميعًا فى الصلاة نحو الكعبة مكيّفين أوضاعهم فى المكان على اختلاف مواقعهم، وتحديد مواقيت الصلاة تحكمه حقائق علم الفلك ولابد من تحديد هذه المواقيت تحديدًا دقيقًا خلال أيام السنة كلها ، ويقتضى هذا تحديد موقع الأرض فى مدارها الفلكى حول الشمس .

وتحتاج الزكاة إلى إحصاء (المستحقين) ودليل (استحقاقهم الشرعى) وحساب مقادير الزكاة . ويتصل الحج بالسفر وضرورة الإلمام بكثير من (المعلومات) والحقائق التى يتطلبها المسافر إلى مسافات بعيدة . فإذا وضعنا الأمر فى أبسط صوره، وإذا صرفنا النظر عن أى شيء آخر فى الإسلام لوجدنا أن المجتمع المسلم بدون أن يمارس أى شيء سوى الأعمدة الخمسة للإسلام ، يجب

عليه أن يبلغ حدًّا أدنى من الحضارة ، ومعنى هذا أن الإنسان لا يستطيع أن يكون مسلمًا ويبقى متخلّفًا .

كان هذا الاتجاه مقصودًا بلا شك ، وتأتى الحجة على هذا من تاريخ العلوم الإسلامية نفسها ، فهى تبين لنا أن تطور جميع الميادين العلمية فى القرن الأول الإسلامى قد بدأت بمحاولات تأدية الفرائض الإسلامية بأكبر قدر من الدقة .

■ **التقدم العلمى :**

وجد المسلمون فى وادى نهر الفرات علم التنجيم مزدهرًا، وقد جمع قدراً من المعارف الهامة عن الظواهر الفلكية عبر ثلاثة آلاف سنة، ولكن لأن الاعتقاد بارتباط مصير الإنسان بالنجوم (وهو ميدان علم التنجيم) كان غريبًا (مجافيًا) للإسلام، فإن التوحيد الإسلامى والعقلانية الإسلامية استطاعا تحويل علم التنجيم إلى علم فلك وقد

أنشئت لهذا الغرض مدرسة بغداد لعلوم الفلك وسميت باسم مرصدها الشهير .

ويتحدث (العالم سيديلوت) عن ذلك فيقول : (كان من أخص خصائص مدرسة بغداد لعلم الفلك منذ نشأتها روحها العلمية : ألا تنتقل من المعلوم إلى المجهول وألا تقبل شيئًا كأمر ثابت ما لم يتم التحقق منه عن طريق (الملاحظة) . وقد اقترب تقويم الفلكى المسلم (الخيام) من الدقة التى يتميز بها التقويم الجريجورى الذى تستخدمه أوروبا حتى اليوم .

أما قوائم (توليدو) التى تنسب إلى مؤلفها إبراهيم الزركلى وتختص بدراسة حركات الكواكب فقد ظلت لفترة طويلة من الزمن أساس علم الفلك فى أوربا . وأعلن البيرونى أن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس وليست الشمس هى التى تدور حول الأرض كما كان شائعًا قبله ، وذهب ابن باجّه إلى أن مدارات الكواكب بيضوية وليست دائرية .

هذا الاهتمام الفذ بعلم الفلك وبالعلوم الطبيعية خـــلال القرن الأول للإسلام كان نتيجة مباشرة لتأثير القرآن ، فقد تحول الدين نحو الطبيعة وبدأت بذلك مرحلة عظيمـــة فى تطور العلوم، وكان هذا من أعظم الإنجازات التى تحققـــت فى التاريخ .

إن احتضان الدين للعلم اتجاه إسلامى يمكن أن يُرى فى أحسن صوره فى التحام المسجد بالمدرسة ، ويرجـــع أول قرار لبناء لمدارس قرب المساجد إلى الخليفـــة عمـــر بـــن الخطاب رضى الله عنه وقد تكرر الأمر بـــذلك فى عهـــد هارون الرشيد .. ولم تنفصل المدارس عن المساجد إلا بعد ذلك بعهد طويل ، وذلك عندما أنشئت المدرسة (النظامية) فى بغداد ، ومع ذلك فقد استمرت البرامج الدراسية قائمة على أساس (الوحدة ثنائية القطب) ...

وقد نتج عن التحام المسجد والمدرسة ظاهرة لا تعرف إلا فى إطار الثقافة الإسلامية ، وهى ما يمكن أن يطلق عليه (المسجدرسة) وهو بناء فريد يجمع بين وظـــيفتى المـــسجد والمدرسة معًا ، ولا يوجد له تسمية موازيـــة فى اللغـــات

الأوربية ، ويوجد دليل تاريخى على أن المسجد الأول الذى بناه النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه كان مدرسة فى نفس الوقت وكان يسمى مسجد (الصُّفّة) .

هذا البناء المتميز هو المعادل المادى أو التقنىّ لتلك المسلّمة الإسلامية لوحدة الدين والعلم التى بدأ بها نزول القرآن نفسه : ﴿إقرأ باسم ربك الذى خلق ..﴾

وقد انعكس المفهوم نفسه فى جميع البرامج التى قدمتها هذه المدارس ، وكانت المدرسة النظامية فى بغداد لزمن طويل نموذجًا للمدرسة الإسلامية فى كل مكان . ورأى الأوربيون أن هذه المدرسة تعتبر مدرسة دينية عليا ، ولكن الحقيقة أن برامج هذه المدرسة — إلى جانب اشتمالها على علوم الدين من تفسير وحديث وأخلاق وعقائد — كانت تعنى على المستوى ذاته بالقانون (الفقه) والفلسفة والآداب والرياضيات والفلك والطب كجزء لا يتجزأ من برامجها ، وكانت (النظامية) نموذجًا يُحتذى لكثير من المدارس المماثلة، وأصبحت أكثر الأنماط شيوعًا فى جميع المدن الإسلامية الكبرى .

ولذلك لا يمكن تصنيف المدارس فى العالم الإسلامى

وفقًا للمعايير الأوربية ، التى تقسّم المــدارس إلى مدنيــة ودينية، فهذا النوع من المدارس اعتبرها المسلمون جميعًا أمرًا طبيعًا لأنها انبثقت مباشرة من الروح الإســلامية وظــل الموقف سائدًا إلى الوقت الحاضر ، وحيثما وُجد اخــتلاف فمرجعه إلى التأثير الأجنبى .

الوضع الأصلى للمدرسة يتوازى مع المفهوم الإسلامى الأساسى الذى يوحد بين الدين والعلم . فأزهر القاهرة هو أكبر وأقدم مدرسة (أنشئ عام ٩٧٢م) ويشار إليه دائمًــا كجامع وجامعة ، ولم يقتصر التعليم فى الأزهر على علوم الدين فقط إلا فى أحلك فترات التدهور ..

إن توجه الإسلام نحو العالم الخارجى يمنحــه واقعيــة خاصة فى فهمه للإنسان : فتقبل الطبيعة بصفة عامة يتضمن أيضًا تقبل الطبيعة الإنسانية ..لقد رفضت جميع الأديــان الأخرى هذا العالم بما فى ذلك جسم الإنسان . فالإســلام هو تحقيق المستحيل فى نظر المسيحية ألا وهو الاعتــراف بواقعية العالم . وتبدو بعض الآيات القرآنية غريبة فى نظــر

الدين المجرد ، على سبيل المثال تلك الآيات المتعلقة بتقبل المتعة البدنية والحب الجنسى والكدح والصحة .. وهكذا تبلورت أكبر حقيقة حاسمة فى تاريخ الأديان، وفى تاريخ العقل الإنسانى بصفة عامة تميزت بظهور (دين العالمين) (علم الدنيا وعالم الآخر) .. عالم المادة وعالم الروح) .. بمعنى آخر ظهور المنظومة التى تحتضن الحياة الإنسانية بكل جوانبها .

وتحقق الإنسان أنه ليس فى حاجة إلى أن يرفض الدين من أجل العلم ، أو يتخلى عن الكدح فى سبيل حياة أفضل من أجل الدين .

فى الوقت الذى يؤكد فيه الإسلام على عظمة الإنسان وكرامته يبدى واقعية شديدة .. فالإسلام لا يتعسف بتنمية خصال لا جذور لها فى طبيعة الإنسان .. إنه لا يحاول أن يجعل منّا ملائكة لأن هذا مستحيل بل يميل إلى جعل الإنسان إنسانًا .. فى الإسلام قدر من الزهد ولكنه لم يحاول بهذا الزهد أن يدمر الحياة أو الصحة أو الفكر أو

حب الاجتماع بالآخرين أو الرغبة فى السعادة والمتعة .. هذا القدر من الزهد أريد به توازنًا فى غرائزنا ، أو توفير نوع من التوازن بين الجسم والروح .. بين الدوافع الحيوانية والدوافع الأخلاقية . وهكذا — من خلال الوضوء والصلاة والصيام وصلاة الجماعة والنشاط والملاحظة والكدح والتوسط — يواصل الإسلام عمل الفطرة فى تشكيل الإنسان .

إن هذا الموقف الإسلامى بالذات هو الذى سبب سوء فهم العقل الغربى لهذا الدين .. وهو سوء فهم لا يزال مستمرًا إلى اليوم !!..

لقد هاجم بعض النقاد الإسلام لحسّيته المزعومة معزّزين دعواهم بمقتبسات من آيات القرآن وأمثلة من سيرة حياة محمد صلى الله عليه وسلم، ونحن نقول بصراحة وبلا مواربة : نعم .. إن الإسلام يدافع عن الحياة الطبيعية ولا يكرّس الزهد فيها .. وأنه يدافع عن الثراء ضد الفقر ، وعلى قدرة الإنسان فى تسخير الطبيعة ، ليس فقط على

هذا الكوكب الأرضى فقط ولكن فى الكون كله ما أمكن له ذلك .. ولكن لكى نفهم موقف الإسلام فهمًا صحيحًا لابد أن ننظر إلى أفكار : (الطبيعة والثروة والسياسة والعلم والقوة والمعرفة والسعادة) بطريقة مختلفة عما اعتاد عليه الناس فى الحضارة الغربية ...

الحياة فى الإسلام يحكمها عاملان متكاملان : أحدهما الرغبة الطبيعية فى السعادة والقوة والثانى الكمال الأخلاقى .. هذان العاملان يتعارضان ويطرد أحدهما الآخر فى إطار المنطق النظرى فقط ولكنهما يتآزران بطرق عديدة فى حياتنا وأمام أعيننا .

تتهم الأناجيل الغرائز وتتحدث عن الروح فقط أما القرآن فإنه يستعيد الغرائز لأنها حقيقة واقعة وإن لم يكن فيها سمو .. يتناول القرآن الغرائز متفّهمًا لا متّهمًا .. ولحكمة ما أمر الله الملائكة بالسجود للإنسان .. ألا يتضمن هذا السجود تفوّق ما هو إنسانى على ما هو ملائكى ؟.. ليس الناس كائنات نبيلة حلوة الشمائل ، إنما

هم فحسب مهيّأون لفعل الخير .. إن لهم أبدانًا وفيهم غلظة وتتجاذبهم الرغبات والمغريات من أقطارهم .. وتحت تأثير رغبة شاذة أن نجعل من الناس كائنات معصومة من الخطأ مبرّأة من الإثم — تحقّقنا فجأة أننا — بدلاً من ذلك — حصلنا على شخصيات زائفة حساسة شاحبة ..كائنات غير قادرة على فعل شر ولا خير .

قضية الإسلام هى قضية اتساق الإنسان مع نفسه اتساقُ مُثله العليا مع رغباته المادية والاجتماعية والفكرية ، ذلك لأن الصراع فى هذا المجال الحيوى مصدر أساسى للأمراض النفسية العصابية ، يضاف إلى المصدر الآخر ألا وهو الصراع بين الإنسان وبيئته ..

إن الاضطرابات العصابية والتشوه النفسى الذى أصاب الإنسان الغربى يعتبر جزئيًا نتيجة للصراع الداخلى بين المثل العليا للمسيحية وبين المنظومات السياسية للمجتمع التى تطورت منفصلة عن هذه المثل العليا ، بحيث أصبحت الكنيسة ترعى الروح بينما تتولى الدولة التحكم فى

الأجسام وفق المسلّمة القائلة : (إعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) .. لقد سمح للإنسان الغربى أن يكون مسيحيًا فى حياته الخاصة وأن يكون (مكياً فيليًا) فى معاملاته العامة وأعماله ، والذين لا يستطيعون أن يتحملوا هذا الصراع يقعون فريسة للاضطرابات العصابية .

من ناحية أخرى يكاد يجمع الذين أتيح لهم التعرف على العالم الإسلامى على انطباع بأنه يوجد اتساق بين الإنسان وبين مجتمعه ، وباندماج الفرد فى النسيج الاجتماعى ، وليس هذا الالتحام صناعيًا أو سياسيًا أو قانونيًا وإنما التحام جُوّانى عضوى .. هذه حقيقة قائمة رغم انتشار الفقر والتخلف فى هذه البلاد .

لقد رفض النبى محمد صلى الله عليه وسلم التطرف .. وقد نسب إليه (رلف والْدو إمرسون) حديثًا بهذا المعنى : (أنا خصم تقىّ جاهل وعالم كافر) .. ولا شك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مخاصمًا لكثير من الأضداد المتطرفة : المؤمنون الضعفاء .. والحكام الذين لا يؤمنون

بالله .. والنفس النقية فى بدن قذر .. والنفس الفاسدة فى جسم مهندم .. كان محمد صلى الله عليه وسلم خصمًا للعدالة التى لا تساندها قوة .. كما كان خصمًا للقوة الباغية .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ليعترض على الغنى والوفرة ولكنه كان يصرّ على الفضيلة مع الغنى .. وكان بالتأكيد ضد الفضيلة العريانة العاجزة التى ليس لها من يحميها .. وقد سوّى الرسول صلى الله عليه وسلم الجهاد من أجل حياة أفضل .. الجهاد ضد الطغيان والجهل والمرض والفقر والقذارة – بالفضيلة الأخلاقية .

ليس المسلمون قديسين حتى عندما يصلّون ويصومون .. إنهم أناس عاديون – رجالاً ونساءً – يحلمون بالحب ومتع الحياة ومع ذلك فهم إنسانيون إلى النخاع .. يشاركون فى الحياة الواقعية ويعودون إليها دائمًا ، إنهم لا يعتزلون فى الكهوف بعيدًا عن المجتمع ولا يهملون أنفسهم ، إنهم لا يستسلمون ليكونوا تحت رحمة أعدائهم .. ولا يرفضون

التمتع بالطيبات التى رزقهم الله بهـــا .. إن المـــسلمين لا يعتبرون الحرية الجوانية كافية فكل مؤمن يستمتع بهذا النوع من الحرية، ولكنهم يحرصون على الحرية المادية ولا يرضون بأن يكونوا عبيدًا لأحد ...

من هنا جاءت أهمية الإسلام باعتباره الحـــل الأمثـــل للإنسانية لأنه يعترف بما فى طبيعة الإنسان من ثنائية ، وأى حل مختلف يغلّب جانبًا من طبيعة الإنسان على حـــساب جانبه لآخر من شأنه أن يعوق انطلاق القـــوى الإنـــسانية (الكامنة) أو يؤدى إلى صـــراع داخلـــى .. إن الإنـــسان بطبيعته الثنائية أكبر حجة للإسلام .

الإسلام والحياة

ليست الثنائية فلسفة سامية وإنما هى نوع من الحياة الإنسانية السامية : فالشعر (مثلاً) من حيث المبدأ مسألة قلبية إلا أن كبار الشعراء قد جمعوا فى شعرهم بين العقل والمشاعر .. بين العلم والجمال .. ولو أن الشعر يخص الفرد لا المجتمع إلا أن هناك قصائد ساعدت فى تشكيل الأمم وفى القضاء على العبودية .

كذلك الأمر بالنسبة للرياضيات فهى وإن كانت تنتمى إلى العقل إلا أن عالم الرياضيات المتميّز لابد أن يكون شاعرًا أيضًا، وكان العلماء الكبار فى الطبيعة والفلك صوفيين أيضًا بمعنى من المعانى .

وينطوى العقاب على فكرة الثنائية أيضًا فالعقاب وإن كان إجراء قمعيًا إلا أنه يعتبر حافزًا أخلاقيًا قويًا .. فإذا قام العقاب على العدل كانت له قيمة تعليمية بالنسبة للمذنب ولغيره من الناس .. فالخوف الذى يتولد من فكرة العقاب

هو بداية للأخلاق مثلما أن خوف الله هو بداية لحبه .

وتعكس الثنائية نفسها فى الرياضة البدنيـــة فهـــى وإن كانت مجرد نشاط بدنى إلا أن لها قيمة تعليمية كبيرة .. فلا غرابة أن الجسم والنفس .. القلب والعقل .. والعلم والدين تجتمع كلها عند نقطة واحدة تمثل قمة الحياة .. أما العقل العريان أو الإلهام المجرد فهما من علامات التدهور .

وفى الوحدة ثنائية القطب يخدم المبدأ العلمـــانى المبـــدأ الروحى: فنظافة البدن تساعد على تطهير النفس وتـــصبح الصلاة أسمى أنواع التأمل الروحى ...

ولابد أن يكون الجسم قويًا ليقدر على إطاعة العقـــل فالخادم الجيد لابد أن يكون قويًا ..وتفـــسح التجـــاوزات الطريق أمام الأهواء التى تضعف أجسامنا فى النهاية ..وعلى عكس ذلك يؤدى تعذيب البدن بالامتناع عن الطعـــام إلى النتيجة ذاتها ولكن لسبب مضاد .. وكلما كـــان الجـــسم ضعيفًا كان سلطانه على العقل أقوى وكلما كان قويًا كان أكثر طاعة .. فجميع الأهواء الحسية مختزنـــة فى الجـــسم

الضعيف وكلما قلّ إشباعها كلما أوقعت بنا الآلام .

والقوة – من حيث المبدأ – لا صلة لها بالأخلاق ولكن في الحياة الواقعية لا توجد عدالة حقيقية بدون قوة تعززها ، فالعدالة وحدة تجمع بين مفهومي الإنصاف والقوة معًا .. لقد انبثقت أفكار المساواة والحرية والإخاء من الدين ، ولكن من حيث الواقع كان تحقيق هذه المبادئ بواسطة الثورة .. أعني بالسياسة والعنف .. وكان عجز الدين عن تحقيق بعض مبادئه العظيمة سببًا في التهوين من مصداقيته أمام المستضعفين والمقهورين ، وعلى العكس أمكن تبرير العنف والسياسة لأنهما أوْجدا الوسائل المطلوبة لتحقيق الأفكار العظيمة التي دعا إليها الدين وبشر بها ولكنه عجز عن ترجمتها إلى واقع .

العمل الإنسانى :

للعمل الإنسانى جانبان : الأول هو النشاط نفسه وهو إنسانى لا نفعى ، والثانى هو النتيجة المترتبة على هذا النشاط أو الناتج الذى تحفز إليه المنفعة ، والدين معنى بالجانب الأول أما الحضارة فمعنية بالجانب الثانى .. لا تفكر الحضارة (اشتراكية أو رأسمالية) إلا فى النتائج .. وهى تحاول أن تتجنب العمل بقدر ما تستطيع ، وذلك من خلال تأجير قوة العمل سواء كانوا من العبيد فى الزمن السالف أو الآلات فى الزمن اللاحق.

و(بتحليل) العمل رأينا أن العمل كنشاط نافع له جانبان: جانبه الأخلاقى وجانبه الاقتصادى .. فهو دفاع ضد الشر والهوى كما أنه دفاع ضد الفقر ، والعمل بهذه الصفة الثنائية ظاهرة إسلامية .

ويمكن ملاحظة التوازى بين النافع والأخلاقى بوضوح فى ظاهرة تهم كل من الحياتين الطبيعية والاجتماعية للإنسان .. إنها ظاهرة منع أو تحديد الزواج من الأقارب

خلال تاريخ تطور الأسرة الإنسانية ، في هذه الناحية نجد أن موقف العلم والأخلاق متفقان اتفاقًا كاملاً .

■ لقد وُجد تحريم زواج القارب الأدْنين في كل بقاع العالم وفي جميع الأزمنة ، وهذا مثل حي لما يمكن أن نسميه بالإسلام (الفطرى) وكأن الحياة نفسها قد اهتدت إلى طريقها الإسلامي.

لقد وُجد أن تحريم زواج الأقارب الأدْنين مبنيّ على أسباب أخلاقية بمقدار ما هو مبنيّ على أسباب بيولوجية صحية .. فقد أثبتت التجارب أنه قانون طبيعى لا يخص الإنسان وحده وإنما ينطبق على الحيوان والنبات كذلك .. ويلاحظ أن تحريم زواج الأقارب قديم جدًا ، وقد اعتبر زواج (المحارم) خطأ أخلاقيًا .. وهذا مثل كامل على التوافق بين الأخلاق والعلم وهو يمثل جوهر ما نسميه بالمقترب الإسلامى .

■ ينتقل عزت بيجوفيتش إلى مجال الطب ليثبت ما فيه من ثنائية ، فلم يكن الطب — في الماضى أو الحاضر — علمًا بحتًا ، ولكنه جمع إلى جانب العلم الحكمة والأخلاق والنظام الروحى في وقت واحد .. وقد اكتشفت حديثًا

أمراض لم يُعرف لها أسباب عضوية محدّدة وإنما لها علاقة بالاضطرابات النفسية ومن ثم نشأ فرع حديث فى الطب اختص بدراسة التأثير المتبادل بين الجسم والنفس وهو علم الطب (السيكوسوماتى) النفسجسدى .. هذا العلم يعتبر القروح والربو الشعبىّ والبدانة والسّكرى والشقيقة وأنواع الصداع الأخرى والآلام الروماتزمية .. كل هذه الأمراض فى أساسها ذات أصل نفسى .. ولهذا السبب لا يمكن اختزال العلاج الصحيح إلى مجرد علاج (طبيعيكيميائى) فقط أو مجرد جراحة .. ويختلف العلاج من شخص إلى شخص آخر رغم أن المرض واحد .. ولذلك قد تكون هناك أجزاء من الحقيقة لا يصح أن نستبعدها فى القصص القديمة عن الشفاء بالصلاة والقرابين والصيام .. إن مستشفيات باريس حتى اليوم تستخدم الموسيقى فى العلاج .. ولا عجب فإن الطب شأنه فى ذلك شأن أى شىء آخر معنىّ بالإنسان مباشرة — عليه أن يحقق التكامل بين العلم والدين .

■ يرفض عزت بيجوفيتش التفسير المادى للتاريخ الذى يذهب إلى أن العامل المادى الموضوعى هو المؤثر الوحيد فى التطور التاريخى ويرى أنه لا يمكن إغفال دور التأثير الخلاق لعامل الوعى الإنسانى متمثلاً فى الشخصيات القوية والأفكار الكبرى والمثل العليا . فالوضع التاريخى فى أى لحظة من الزمن هو نتيجة التفاعل بين هذين العاملين المستقلين .. يقول :

(إن التأثير الإنسانى على مجرى التاريخ يتوقف على قوة الإرادة والوعى ، وكلما عظمت القوة الروحية للمشارك فى الأحداث التاريخية كلما عظم استقلاله عن القوانين الخارجية والعكس صحيح . فمن حيث المبدأ الإنسان حر حرية كاملة وليس للقوانين الخارجية سلطان عليه ، فقد تمكن الإنسان بقوة إرادته أن يقاوم الأمراض والمخاطر .

إن الإنسان إذا وجد نفسه بين الأسود قد يهلك ، ولكن هذا القانون (البديهى) الواضح لا ينطبق على مدرّب الأسود . والتاريخ قصة متصلة من مجموعات صغيرة من

أناس تميزّوا بالحسم والشجاعة والذكاء .. تركوا طابعاً لا يُمحى فى مجرى الأحداث التاريخية وتمكنوا من تغيير مسار التاريخ .

إن قوة الظروف الموضوعية تتزايد بالنسبة ذاتها التى يتناقص فيها العامل الفردى ، فكلما أصبح هذا خاملاً غير فعّال كلما نقص قدْره فى الإنسانية وزاد نصيبه من الشيئية — إننا نملك القدرة على الطبيعة وعلى التاريخ إذا كانت لنا القدرة على أنفسنا ..وهذا هو موقف الإسلام من التاريخ : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ .

هذه النظرة الإسلامية الجوهرية للأحداث التاريخية تستطيع أن تفسر لنا سير التاريخ وأن تحدد نصيب الناس فى (أحداثه) ، وأن تحدد قدرتهم على هذه الأحداث ، وحدود هذه القدرة ، أى فى إمكانها التمييز بين ما يستطيع الإنسان عمله وما ينبغى عمله باعتباره موضوعًا للأحداث التاريخية .. هذه النظرة تفسر لنا التأثير الخلاق للمثل العليا فى الواقع التاريخى وتغيير هذا الواقع خلال إرادة الإنسان وطاقته ،

ومن ناحية أخرى تفسر لنا دور العوامــل الموضــوعية أو ضرورة الاعتماد على الحقائق الموضوعية . هــذه النظــرة الإسلامية ترفض الحتمية التاريخية كما ترفض أى مثاليــة جوفاء لا جذور لها فى الواقع ..إن الحقائق والأفكــار ، ومن ثم الواقع والإنسان ، يأخذ كل منهما حدوده فى هذا المفهوم .

الطبيعة الإسلامية للقانون :

■ عقد عزت بيجوفيتش فصلاً كاملاً عن القانون تحت هذا العنوان ، وهو من أبدع وأمتع فصول الكتاب ، ولكن لأن هدفنا فى هذا المختصر هو تبسيط الكتاب وتقديم صيغة موجزة له ، ولأن أى تبسيط أو اختــصار لهــذا الفــصل بالذات يفقده ما يتمتع به من زخم فلسفى فكرى ويحجب تحليلاته البديعة وقوة منطقه لذلك سأكتفى باقتباس عبارات منه ذات دلالة .

وأبدأ بتحرير نقطة هامة تتعلق بثنائية القانون التى تتبــع

من مبدأ الثنائية الإسلامية ..حيث يرى عزت بيجوفيتش أن قوانين أى مجتمع هى تلك القوانين التى — بجانب التهديد بالعقاب — تلزم ضمير المواطن أيضًا .. وكل قانون منظومة قانونية هى كذلك أو على الأقل تتظاهر بأن تكون كذلك .. فهناك ثنائية أصيلة فى القانون : إرادة واضع القانون ، والعدالة التى جاء هذا القانون ليحققها ، هذه الثنائية لا فكاك منها ولا يمكن الاستغناء عنها .. فإذا تحطمت هذه الثنائية يتلاشى القانون .. فهو إما أن يتقلص وينحصر فى مصلحة السلطة السياسية فقط، وإما أن يتسامى إلى مجرد فكرة أو دعوة أخلاقية ، وفى كلتا الحالتين يتوقف القانون عن أن يكون قانونًا .

– معنى هذا أن القانون لا يمكن أن يقوم على واحد من المبدأين فحسب : فلا المسيحية وحدها ولا المادية وحدها يمكن أن تنتج منظومة قانونية ..فالقانون كما يراه المسيحيون محاولة وهمية لتنظيم العالم محاولة مصيرها الفشل فى النهاية ، لقد جاء عيسى (عليه لسلام) ليبشر بالمحبة و لم يأت من أجل العدالة التى قررتها التوارة .

– إن القانون موضوعى مغموس فى السياسة والمجتمع

موجّه نحو هذا العالم ولكنه فى الوقت نفسه ينطوى على معايير أخلاقية ويهدف إلى إقامة مبدأ العدل فى العالم وهو مبدأ أخلاقى بهذا المعنى يكون القانون وحدة ثنائية القطب ، فالقانون بحكم طبيعته إسلامى .

– فى جميع الدول (المستبدة) نواجه القوة الباطشة التى تحتكرها السلطات على حساب الهيئات المنتخبة ويحتكرها البوليس على حساب المحاكم والنظام القضائى .. هذا النوع من الدول من أكبر سماته أنه يحول أن يجعل من المحاكم أدوات طيعة فى قبضة السلطات الإدارية ..

– فى الإسلام نجد نوعًا من (وحدة الهويّة) بين القانون والدين ، ونرى غالبية رجال الفكر الدينى الكبار فى الإسلام قد ألفوا كتبًا فى الفقه وأصوله وإنه ليصعب على الأوربيين أن يميزوا بين القانون وبين الدين فى هذه المؤلفات ، كما أن الإسلام لا يعترف بهذا الانفصال ، بمعنى أن القانون إنما هو نتاج طبيعى للإسلام .

– يقتبس عزت بيجوفتيش من ألفريد كريمر قوله : "إن العرب (المسلمين) هم الأمة الوحيدة خلال القرون الوسطى الأولى التى استطاعت – فى تطويرها للقانون – أن تحقق

إنجازات باهرة .. هذه الإنجازات تقف بعظمتها مباشرة مع الأعمال التى حققها الرومان صُنّاع القانون فى العالم" .

– فى الدول الشيوعية أصابت المحاكم (اللعنة) التى لحقت بالقانون باعتبارها الجهة المنفذة للقانون .. حيث نظرت إليها بازدراء .. وكل حكومة من هذا الطراز تحاول أن تحط من قدر القانون والمحاكم .. ولكن لأن الحكومات لم تنجح فى محاولتها نجاحًا كاملاً فإنها عادة ما تتجاهل المحاكم وتتجاوزها باستخدام المحاكمات المباشرة بواسطة البوليس والسلطات التنفيذية ومراكز الاعتقال أى بوسائل أخرى بعيدًا عن المحاكم (التقليدية الطبيعية) .

– إن الشيء الثابت الذى لا يتغير فى هذا الوضع هو عدم احترام الدولة لقوانينها وتجاوز هذه القوانين بإصدار عدد من الإجراءات الاستثنائية .. [يأتى فى هذا السياق قوانين الطوارئ والمحاكم العسكرية] .

– .. التقصير فى حقوق الإنسان الفرد فى ظل نظام (حماية المجتمع) ..يتعرض الفرد لإجراءات تعسفية دون ذنب جناه ، ويمكن لتدابير حماية المجتمع أن تتخذ أشكالاً بالغة القسوة فى حالتى المنع أو الوقاية من أخطار محتملة ..

ولقد استخدمت (إجراءات) من هذا النوع فى بعض البلاد ضد المعارضة السياسية ..

الأفكار والواقع :

هذا هو عنوان الفصل العاشر من الكتاب يتناول فيه عزت بيجوفيتش حقيقة إنسانية هامة وهى أن الأيديولوجيات المتطرفة تضطر عند التطبيق إلى تنازلات تخالف مبادئها الأصلية .. حدث هذا فى الماركسية وفى المسيحية عندما حاولتا بناء مجتمعات على أساس من مبادئهما .. فكان على الماركسية أن تتخلى عن صرامتها المادية وتعترف بشيء من الأخلاق وحقوق الإنسان ، وكان على المسيحية أن تتخلى فكرتها عن العفة (أو تجنب الزواج) لصالح مؤسسة الزواج فى المجتمع وأبقت تحريم الزواج مقصورًا على رجال الدين فقط ، واعترفت بالعمل بدلاً من الزهد فى الدنيا والانقطاع عنها .

الطريق الثالث خارج الإسلام :

هو عنوان الفصل الحادى عشر .. يقول فيه عزت بيجوفيتش : (.. ستظل أوربا تفكر فى إطار الاختيارات المسيحية : إما مملكة الرب وإما مملكة الأرض .. وسيظل دين أوربا وإلحادها سادرين فى طبيعتهما المتطرفة) .

ولكن يوجد جزء من العالم الغربى – بسبب موقعه الجغرافى وتاريخه – متحرر من التأثيرات المباشرة المسيحية القرون الوسطى ، متحرر من العقد المستعصية لهذا العصر .. هذا الجزء من العالم الغربى كان دائم البحث عن طريق ثالث وقد اهتدى إليه وهو طريق يحمل فى ثناياه ملامح الطريق (الإسلامى) ، والدولة التى أعنيها هى انجلترا وإلى حد ما أيضًا العالم الأنجلوسكسونى بصفة عامة .

(ولذلك) يعتبر ظهور انجلتر والروح الأنجلوسكسونية فى تاريخ الغرب أشبه بظهور الإسلام فى تاريخ الشرق ، ولعل هذا هو ما عناه (شبنجلر) فى مقارنته بين النبى محمد صلى الله عليه وسلم وبين كرومويل .. لقد رأى شبنجلر الشخصيتين فى إطار نظرته لتاريخ العالم كأنهما شخصيتان

معاصرتان :

التوحيد بين الكنيسة الإنجليزية والدولة وكـذا ظهـور الإنجليز كقوة عالمية ، كل ذلك بدأ بكرومويل ، وكذلك بدأت بمحمد صلى الله عليه وسلم وحدة الدين والدولـة وظهور القوة العالمية للإسلام ، وكان كلاهما مؤمنًا متطهرًا ومؤسسًا لإمبراطورية كبرى .. ويبدو أن هذا أمر طبيعـى جدًا بالنسبة للعقل الإسلامى والعقل الأنجلوسكسونى ، ولكنه شديد الغرابة عند العقل الأوربى . لقد حطم القديس لويس الدولة الفرانكوفونية ، أما فى العـالم الإسـلامى — فعلى عكس ذلك لم يحدث تقدم سياسى أو اجتماعى إلا بصحوة دينية ..

– وضع بيكون بناء الفكر الفلسفى الإنجليـزى علـى قاعدتين مستقلتين فى أصلهما : الخبرة الباطنية التى تـؤدى إلى استنارة الروح (أو الدين) ، والملاحظة التى تـؤدى إلى العلم الصحيح (أو العلم التجريبى) .. ظل بيكون ثابتًا على ثنائيته كما فعل الإسلام ، فلم يحاول اختزال النظرة العلمية أو النظرة الدينية — إحداهما لحساب الأخرى . ، وإنما أقام التوازن بين النظرتين .. لهذا اعتبره أغلب الإنجليز أعظـم

تعبير أصيل عن الفكر الإنجليزى والمشاعر الإنجليزية ..

يقول عزت بيجوفيتش ولكن تبقى حقيقة هامة عن (بيكون) لم يتم دراستها أو الاعتراف بها ألا وهى أن أب الفلسفة والعلوم الإنجليزية كان فى حقيقة الأمر تلميذًا مخلصا للثقافة العربية الإسلامية ، وقد تأثر بيكون تأثرًا قويًا بالمفكرين المسلمين وعلى الأخص (ابن سينا) الذى اعتبره بيكون أعظم فيلسوف ظهر بعد أرسطو ..

– لنتأمل هذه الحقيقة : فى القارة الأوربية — كقاعدة عامة — العالِم التجريبى عادة ما يكون ملحدًا ، أما فى انجلترا فإن (جون لوك) أب المنهج التجريبى فقد جعل (الله) فى مركز نظريته الأخلاقية ، ودافع عن الروادع الأخروية من ثواب وعقاب بحماس القسيس ، وأدمجها فى بناء المبادئ الأخلاقية . يقول (جون لوك) : إذا كان كل أمل الإنسان قاصرًا على هذا العالم ، وإذ كنا سنتمتع بالحياة هنا فى هذه الدنيا فقط فليس غريبًا ولا مجافيًا للمنطق أن نبحث عن السعادة .. والمتعة .. دعنا نأكل ونشرب .. دعنا نتمتع

بالأشياء التى تجعلنا سعداء لأننا غداً سنموت (بلا قيامة) .. ثم مضى (جون لوك) التجريبى الكبير يفصّل فى أدلته على وجود الله .

- بينما فى فرنسا الكاثوليكية لا يزال الصراع العنيد بين المدرسة الروحية والمدرسة الوضعية مستمرًا .

- حتى الاشتراكية الإنجليزية هى الأخرى من نوع مختلف عن نظيراتها فى أوربا ، فالاشتراكية فى أوربا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالفلسفة المادية والإلحاد ، بينما نستمع من منظمة حزب العمال البريطانى اقتباسات من الكتب المقدسة (مثلما نسمعها من منبر الكنيسة هناك) على حد تعبير أحد المراسلين الصحافيين الفرنسيين معبرًا عن انطباع الاندهاش.

- يتحدث عزت بيجوفيتش عن الدول الكاثوليكية وعدم قدرتها على سلوك الطريق الثالث (أو الطريق الوسط) فإيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال كانت ولا تزال نماذج لمجتمعات حادة الاستقطاب .. فالرأى العام فى هذه البلاد منقسم –بشكل غير قابل للتصالح– بين حركات وأحزاب

يمينية مسيحية ويسارية ماركسية ، أما الوسط فإما أنه محدود جدًا وإما قد تلاشى تمامًا .. فى هذه البلاد تصطدم أكبر عقيدتين متصلبتين فى التاريخ: الكاثوليكية والشيوعية.

– يرصد عزت بيجوفيتش محولات حديثة للتقارب بين الكاثوليكية والماركسية ، ويلاحظ تنازلات من كلا الجانبين فيما يعرف باسم (التسوية التاريخية) ثم يعلق على ذلك بقوله :

(جميع هذه الظواهر التى ناقشناها ذات دلالة على توجّهاتها ولكنها ليست إسلامًا ولا تؤدى الإسلام ، لأنها قسريّة متكلفة غير متسقة مع نفسها وقاصرة . أما الإسلام فإنه يتضمن رفضًا واعيًا للمسلمات الدينية والاشتراكية أحادية الجانب ، وينطوى على تسليم إرادى بمبدأ الثنائية . ومهما يكن الأمر فإن ما رأيناه من تأرجح وانحرافات وتسويات قهرية ، إنما يمثل انتصارًا للحياة والواقع الإنسانى على جميع الأيديولوجيات القاصرة على جانب واحد ، وهذا فى حد ذاته يعد انتصارًا للمفهوم الإسلامى .

التسليم لله

للطبيعة حتمية تحكمها ، وللإنسان قَدَرُه ، والتسليم بهذا القدر هو الفكرة النهائية العليا للإسلام .

فهل القدر موجود .. وأى شكل يتخذ ؟ دعنا ننظر فى حياتنا لنرى ماذا تبقّى من خططنا العزيزة على أنفسنا .. وما بقى من أحلام شبابنا ؟.. ألم نأت إلى هذا العالم بلا حول لنا ولا قوة .. ثم واجهنا تركيبتنا الشخصية ، ومُنحنا قدرًا من الذكاء قلّ أو كثر ، وملامح جذابة أو منفّرة ، وتركيبة بدنية رياضية أو قزمية ، ونشأنا فى قصر ملك أو كوخ شحاذ .. فى أوقات عصيبة أو زمن سلام .. تحت سلطان طاغية جبار أو أمير نبيل .. وفى ظروف جغرافية وتاريخية لم يتم استشارتنا بشأنها !.. كم هى محدودة تلك التى نسميها إرادتنا ..وكم هو هائل وغير محدود قدُرنا !..

لقد وُضع الإنسان فى هذا العالم وقُدِّر له أن يعتمد فى وجوده على كثير من الحقائق التى لا يملك عليها سلطانًا ، وتتأثر حياته بعوامل قريبة منه وعوامل أخرى نائية عنه أكثر مما يتخيل ..

وكلما نمت معرفتنا عن العالم تزايد إدراكنا بأننا لا يمكن أن نكون أسياد مصائرنا . حتى مع افتراض أعظـــم تقـــدم ممكن للعلم، فإن مقدار ما سيكون تحت ســيطرتنا مـــن عوامل لا يساوى شيئًا إذا قورن بالكم الهائل من العوامـــل الخارجة عن هذه السيطرة ..

ويجتهد الإسلام فى تنظيم هذا العالم عن طريق التنـــشئة والتعليم والقوانين التى شرعها الله ، وهذا هو مجاله المحدود أما مجاله الرحيب فهو التسليم لله ..

العدالة الفردية لا يمكن أن تكون كافية فى إطار هـــذا الوجود المحدود ، إننا قد نتبع جميـــع القواعـــد والتعـــاليم الإسلامية التى من شأنها أن تمنحنا السعادة فى الـــدارين .. الدنيا والآخرة ، وقد نـــضيف إلى ذلـــك اتخـــاذ جميـــع الإجراءات الطبية والاجتماعية والأخلاقية ، ولكن بسبب التشابك الرهيب للأقدار والرغبات والحوادث فإننا سنظل نُصاب فى أجسامنا وفى نفوسنا بكثير من المعاناة، فما الذى يمكن أن يُعزّى أُمًّا فقدت ابنها الوحيد ! وأى سلوى ممكنة

لرجل أصيب فى حادثة فأصبح معوّقًا قعيدًا !

لابد أن نكون على وعى بظروفنا الإنسانية فنحن (متلبّسون) بأوضاع معينة .. وقد أستطيع أن أعمل على تغيير هذا الوضع أو ذاك .. ولكن تبقى هناك أوضاع لا تقبل بطبيعتها التغيير .. وتبقى أمامنا هذه الحقائق : إننى لا مفر لى من الموت ، ولابد من أن أعانى وأن (أكدح) ، إننى ضحية الحظ .. إننى أتعثر دون رغبة منى فى مشاعر الذنب .. ومن المؤكد أن واجب الإنسان هو أن يبذل جهده لتحسين كل شيء بمقدوره أن يحسّنه ، ومع ذلك فسيظل أطفال يموتون بطريقة مأساوية حتى فى أكثر المجتمعات كمالًا .. والإنسان على أحسن الفروض قد يستطيع أن يقلل من كمّ المعاناة فى هذا العالم ومع ذلك سيبقى الظلم والألم مستمرين ..

■ فهل يستسلم الإنسان لله أم يتمرد عليه ! ؟ يقول عزت بيجوفيتش إجابة على هذا السؤال :

الاعتراف بالقدر استجابة مثيرة للقضية الإنسانية الكبيرة

التى تنطوى على معاناة لا مردّ لها .. إنه اعتراف بالحياة على ما هى عليه .. وقرار واعٍ بالتحمّل والصمود والتحمّل بالصبر، وفى هذه النقطة يختلف الإسلام اختلافًا حادًّا عن المثالية المصطنعة .. وذلك لأن التسليم لله هو ضوء يانع يخترق التشاؤم ويتجاوزه .

وكنتيجة لاعتراف الإنسان بعجزه وشعوره بالخطر وعدم الأمن يجد أن التسليم لله فى حد ذاته قوة جديدة وطمأنينة جديدة ..

إن الإيمان بالله والإيمان بعنايته يمنحنا الشعور بالأمن الذى لا يمكن تعويضه بأى شيء آخر . ولا يعنى التسليم لله سلبية فى موقف الإنسان كما يظن كثير من الناس خاطئين ، ففى الحقيقة كل السلالات البطولية كانوا من المؤمنين بالقدر .. إن طاعة الله تستبعد طاعة البشر والخضوع لهم (لا إله إلا الله) إنها صلة جديدة بين الإنسان وبين الله ، ومن ثم بين الإنسان والإنسان .

إنها أيضًا حرية يكتسبها الإنسان بمواصلة الإيمان بقدره ،

ومواصلة الكدح والجهاد سمتان إنسانيتان معقولتان ، وفيهما يتحقق الاعتدال والصفاء إذا نحن آمنا بأن النتيجة النهائية ليست بأيدينا ، إنما علينا أن نسعى ونعمل ..أما الباقى فبين يدى الله .

فلكى ندرك حقيقة وجودنا فى هذا العالم يعنى أن نستسلم لله ..وأن نتنفّس السلام ..وألا يحملنا الوهم على تبديد جهودنا فى الإحاطة بكل شيء والتغلب عليه . علينا أن نتقبل المكان والزمان اللذين أحاطا بميلادنا ..فالزمان والمكان قدر الله وإراداته ، والتسليم لله هو الطريقة الوحيد للخروج من ظروف الحياة المأساوية التى لا حل لها ولا معنى ..إنه طريق للخروج بدون تمرد ولا قنوط ولا عدمية ولا انتحار ، إنه شعور بطولى (ولا أقول شعور بطل) بل شعور إنسان عادى قام بأداء واجبه وتقبّل قدره .

إن الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا محرماته ولا من جهود النفس والبدن التى يطالب الإنسان بها .. وإنما من شيء يشمل هذا كله ويسمو عليه .. من

لحظة فارقة تنقدح فيها شرارة وعى باطنى .. من قوة النفس فى مواجهة محن الزمان .. من التهيؤ لاحتمال كل ما يأتى به الوجود .. من حقيقة التسليم لله .. إنه استسلام لله .. والاسم إسلام !

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهرس



رقم الإيداع ١٥٩٩ / ٢٠٠٥